أضيق من النظر

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

الكتـــــاب: أضيق من النظر
المــــؤلـــف: تامر عطية
تـدقيـق لغـوي: عبدالله أسامة
تصميـم الغلاف: عبدالرحمن حافظ
تنسيـق داخلي: سمر محمد
رقـم الإيـداع: 2016 / 25962
L.S.B.N: 978-977-6541-21-4

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: أحمد حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة ©
عصير الكتب للنشر والتوزيع

أضيق من النظر

رواية

تامر عطية

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

عيونٌ أضيق من النظر

إهـــــداء

إلى الذي بيني وبين ظلي،

عيونٌ واسعةٌ لا ترَى...

(١)

عينان مظلمتان

يُحكى أن طفلًا وُلد بعينين واسعتين ضعيفتا النظر، ظل نظره يفتر شيئًا فشيئًا، حتى لاحظت أمه معاناته مع الرؤية فأخبرت والده، بعد زيارات للطبيب اضطر لاستخدام نظارة طبية، حين وضعها على عينه اشتكى انعدام الرؤية تمامًاَ، تكررت الزيارات للطبيب، ومن بعده أطباء آخرين، في كل مرة يؤكد الطبيب سلامة النظارة ومناسبتها تمامًا لعين الولد.

ثبت القول: (لا بد أن يرتدي نظارته أطول فترة ممكنة ليعتاد عليها).

أجبر الأب ولده على وضعها طيلة وجوده بالبيت، أصر الولد على انعدام رؤيته، وأصر الوالد على أنه كاذب مراوغ.

في أحد الأيام اتخذ الولد قراره بالتخلص من النظارة، ألقاها على الأرض أمام والده، لتنشرخ العدستان، وكنوع من العقاب فرض عليه أبوه أن يضعها رغم الشروخ، وأقسم ألا يبدلها له، حين وضعها الولد أبصر، أخبر والده أن الرؤية قد تحسنت جدًا، عندها زاد يقين الأب من أن ولده يكذب.

فقد الأمر جبريته، أحب الولد نظارته بهيئتها الجديدة، واشتهر بين زملائه بلقب: (الولد صاحب النظارة المكسور زجاجها).

كبر الولد، وكلما كبر زادت عيناه اتساعًا، وكلما زادت العين اتساعًا ضاقت عليه نظارته، واحتاج إلى أخرى أكبر، مع كل تغيير لها يلقيها على الأرض ليحصل على الشروخ التي تُبقيه مبصرًا.

مر العمر، وصل الولد سن الشباب، ذاعت شهرته بين الجميع، (الولد صاحب النظارة المكسور زجاجها).

وجد الأب أنه لم يعد لائقًا بعيني ولده الجميلتين مثل ذلك التشوه الزجاجي، ولا به أن يحمل ولده ذلك اللقب.

علمَ الأب بوصول أحد أمهر أطباء العيون للبلاد، زارا الطبيب الذي سبقته شهرته، أخبرهما أن الولد بحاجة لجراحة نادرة في العينين، بعدها لن يحتاج الولد لنظارة أبدًا، حاول الولد الرفض بكل الطرق، وأخضعه والده للجراحة رغمًا عن أنفه.

ظل غطاء الشاش فوق عينيه مدة شهر بأكمله، لم يكن الأب وحده الذي ينتظر، بل كل من اشتهر الولد بينهم بلقبه، حين أماط الطبيب الشاش من فوق عينيه صرخ الولد: (اختفى النور تمامًا).

كان الأب متأكدًا من كذب ولده، لكن الأمر استمر، كل الفحوصات أكدت نجاح الجراحة، أما الشاب لم يعلن استرداده للنور في عينيه، ما أساء لسمعة الطبيب، واضطره للعودة من حيث أتى، تاركًا وراءه ورقة صغيرة كتب فيها:

(أعلم أنك مبصر).

مرت فترة طويلة لم يتغير فيها الحال، إلى أن جاء يوم أعلن فيه الأب استسلامه، حمل نظارة ولده المكسور زجاجها، دخل بها إليه يرجوه وضعها كما هي، والرؤية من جديد.

اصطدم الأب بنهرين من الدماء يسيلان من محجري ولده، علمَ أنه خرق عينيه...

كي لا يتهمه أحد بعدها بالرؤية.

★★★

(٢)

أمارات الوجع

الظل لا يمتلك ملامحًا يكذب بها، رغم أنه ليس شيئًا صادقًا في مطلقه، الكذب أحد أهم مفردات الحياة كما نعلم.

اسمي هو (خالد).. من عندي تبدأ الحكاية، وبي تنتهي، ما بين الملاك والشيطان كائنٌ يشبهني، هذا إيماني بنفسي، وهذا ما لا يدركه أغلب البشر.

في الواقع أريد الاعتراف بأن عقلي ليس على ما يرام، أشعر بهذا منذ فترة طويلة، أطول من حياتي، حتى صدَّقت.

حاولت جاهدًا إخفاء جنوني، ويبدو أن جهدي لم يكن كافيًا فبعض الجنون لا يختفي تحت الملامح؛ وإن بدت عاقلة.

سمعتهم يتهامسون فيما بينهم أكثر من مرة، اعتقدوا أن كلماتهم ستضِل الطريق إلى أذنيَّ، العلاقة بين الكلمات والآذان أقوى من أن يضيِّعها الهمس أو الإيماءات الخفية.

لم يدركوا طبيعة ما يحدث لي، لهم كل الحق في ظنونهم، حتى أنا لا أصدق أن ظلالهم تكلمني.

لا أعرف مدى صدقها، هي لا تمتلك ملامحًا محددة، وهذا لا يكفي وحده للتصديق، لا بد من وجود عينين لاكتشاف الحقيقة.

أعلم أن آبار البشر ضحلة، وهو السبب المنطقي في أنهم لا يحفظون أسرارهم الصغيرة، فكيف إن علموا بسري الكبير؟

لــن يعرفوه إلا إذا بُحت، وأنا لا أثـــق بأي بئرٍ، سيعـــرفونه فقط عندما أريد، وعندما أحكي.

أتمنى ألا يكون هناك آخر تحدثه الظلال، لكن هذا مستحيل، مستحيلٌ أن يمتلك اثنان نفس الجنون في مثل هذا الحيِّز الضيق جدًا من المعارف.

أقبل فكرة أن يكون هناك آخر في (المكسيك).. أو (تايوان).. وليس بهذا القرب، فالأمور الفارقة لا تحدث إلا مع المختارين، صحيح أن السماء قد أغلقت باب الأنبياء، والأرض فقدت جزءًا غير يسيرٍ من إيمانها، وأنا متأكدٌ أنني أحد المختارين . هذا إن وُجدَ غيري .

مختارٌ للجنون، والحقيقة.

كنت أستطيع تجاهل تلك الظلال لأبدو طبيعيًا في عيون من مروا بجواري، وتركوا ما يستحق البقاء.

أبي، أمي، زملاء العمل، مرضاي، وحبيبتي.

استطعت لأغلب فترات عمري اعتزال البشر، رغم أن بعضهم لا يغيِّبهم إلا الموت، والموت وحده.

ومن لا تحتاجه الحياة يحتاجه الموت وبشدةٍ، والآن صرت خاليًا من أي آخرٍ، انتزعت العزلة التي أردتها منذ بدء التكوين، رغم وجود الظلال.

أستطيع أن أحيا في ظلامٍ دائم، لكن ماذا عن الشمس؟ سترى كل شيءٍ ولو من وراء الجدران.

أرهقني الأمر حتى صرت أكرهها، والمصابيح، ففيهما حياتهم.

الحقائق شديدة القبح، ليتهم يكذبون.

★★★

أخبرتني أمي أني لحظة نزولي للحياة صرخت، استمر صراخي لأيام بعدها، لدرجة أن الجميع نصحوها أن تعيدني إلى بطنها مرةً أخرى . بالطبع كان مزاحًا . ولا أتذكر أنني تعلمت الخوف في أيامي الأولى، فلحظة الختان جاءت بعدها بفترة.

صغيرًا لم أكن أميل للكلام، وكعادة أي أمٍ خافت عليَّ الكتمان، الكتمان يولِّد الانفجار عادةً، وجلدي الرقيق وقتها لم يكن ليحتمل، ظنتني مريضًا فقد اختلفت عن الباقين ممن يماثلون عمري، كفزّاعة الطير وسط حقل ذرة ظهر الاختلاف، أذكر أن عيوني على اتساعها لم ترَ شيئًا واضحًا أبدًا.

قالت لي بعد أن يئسَت من شفائي:

- عندما تشعر بالحاجة للحكي اختر واحدًا وتكلم معه.

بالطبع لم أخترها فقد نصحتني بواحدٍ، وهي أمي وأبي.

بصراحةٍ خفت أن يعرف أبي خباياي، الأمهات لا يجدن الصمت قبل النوم.

عمومًا لم أمتلك ما أخبئه حتى سن العاشرة، وتحديدًا في السنة الخامسة من المرحلة الابتدائية. انصرافي عن الآخرين جعل صفحتي في بياض السحب، ونقاء حبات المطر.

لفتَ تفوقي الدراسي أنظار المعلمين والزملاء، حاولوا مرارًا استقطابي إلى دنياهم العادية. منحني التفوق نوعًا من الحماية ضد ألاعيب بعض الصغار حولي، فقد كانوا يخشون شكواي، لم أحمل لهم كرهًا أو ضغينة أبدًا، فقط خفتهم... ولم أزل.

الأهم من ذلك كله أن عزلتي قد لفتت انتباهها بالفعل.

كانت يمامة بيضاء تستقر خلفي تمامًا، وإحدى زميلاتها.

لم أخترها أيضًا للكلام، الخجل اللعين منعني، ويبدو أن الخجل جزء من الخوف، ذلك ما أدركته.

أحببت اسمها: (جميلة).. تمنيت لو أنها تجلس أمامي، تمنيت أكثر لو أن الله قد خلق العيون بالخلف، رغم ذلك لم أحاول مطلقًا النظر في عينيها السماويتين.

ذات يوم وضعَت ورقةً صغيرة في جيب حقيبتي المدرسية، وضعَتْها بجرأةِ من يريدني أن أعرف، لم تمتلك نفس خوفي من الآخرين، لذا قررَت البدء متناسيةً طبيعتي.

تلك مرتي الأولى التي أستعجل فيها جرس انتهاء اليوم، تحررت مع دقاته، فقدت جرأة فتْح ورقتها بالشارع، فالعيون تغرق كل شبرٍ منه.

عدت إلى البيت أقفز فوق الوقت والمسافة، سابقْت دقات قلبي الصغير، أحكمت غلقَ باب حجرتي، وفتحت الورقة.

"أريد أن أعترف بشيء صغير، أحبك".

تقريبًا تحولت أمنية وجودها في عيني إلى شيء آخر لا يمكنني تأكيده، فقد كنت صغيرًا وقتها، ما أستطيع قوله أنني أردتها قريبة حد الالتحام والحلول.

وبدأت الخيالات تعصف بقلبي، أنا أميرها، وحارسها، أنا بطلها الأسطوري الذي سوف يحملها على حصانه إلى بقعة بعيدة، ونقية، أرض لا تعرف سوى الحياة، لنعيش للأبد بلا موت.

كتمت الأمر، عندها عرفت معنى كلمات أمي: "الكتمان يقتل". بدا شرودي واضحًا للمعلمين، والسيء أنه وضحَ لأبي الذي تخيفني أسئلته بشدة.

كانوا قد تعايشوا مع انعزالي وندرة كلماتي، أما الشرود فاستحق أسئلتهم، فشلوا في الحصول على أي إجابات مرضية مني.

سألني معلمي الأقرب:

- ماذا بك يا (خالد)؟

لم يكن هو المختار للبوح فصَمَتُّ.

كاد الكتمان يضيّعني بالفعل، فقررت استخدام نصيحة أمي، اخترت زميلي الذي جاورني بالفصل، بُحتُ له بما يشغل عقلي، ويفقدني تركيزي، لا أعرف السبب في اختياري له من دون الباقين، أعتقد لأنهم جميعهم متشابهون، أو لأنه أقربهم مسافةً مني، كذَّب قصتي ما اضطرني لإظهار الورقة، أمسكها وقرأ ما فيها ثم صاح من دون مقدمات: أستاذ، أريد أن أخبرك بشيءٍ هام.

همس في أذنه بكلمات غيَّرَت طريقته في النظر إليّ، وغيّرت طريقتي في النظر للحياة بأسرها، نصف ساعة هي كل ما كان يتبقى من الدرس مرت أعوامًا من الخجل والخوف.

تمنيت الموت مع كل نظرة شماتة من ذلك الشقي جاري، وددت لو قتلته، لكني لم أجد في يدي ما أستخدمه.

بعد النهاية استوقفني المعلم ولم أكن وحدي، استوقفها معي.

وجه كلماته لها: هل هذه ورقتكِ؟

لم تجب، التهب وجهها واحتجبت بي، اعتقدَت أني أستطيع الكذب، كنت أعلم أن الكذب لن يقل إيلامًا عن الصدق، لذا لم أقف في صفها، خذلتها برغم الحب الوليد.

أمسك بالورقة وأحرقها دون أن يفرغ ما بها في عينيه، تأملتني بعينين ذاهلتين، تجاهلتهما لحظتها لضآلتي الشديدة، بكيت طول الطريق، في البيت قررت اجتناب الآخرين، كل الآخرين حتى لا يقتلني أحدهم مرة أخرى، أو... أقتله.

لم تأتِ في اليوم التالي، ولا الذي بعده، لأسبوعٍ كامل غابت عن دنياي، أعلن بعدها المعلم أن صديقتنا قد انتقلت إلى مدرسة أخرى، وآمنت أنه حبيبٌ آخر.

كانت رحيمةً بي وابتعدت مخلفةً وراءها عذابًا أخف من الغرق في محيط عينيها.

تلك مرتي الأولى التي عانيت فيها وجع الصدر بشكل حقيقي.

ساء الأمر بعد رحيلها، الكتمان قاسٍ وليس هناك من أثق به، في النهاية اخترت نفسي من بين كل العالمين، جلست أمام المرآة في غياب أمي، حكيت كل شيء دون خجل، ولم تعرف هي عن الأمر شيئًا.

وثقت في صورتي، قررت أن أجعلها صاحبي الذي اخترت البوح له.

لاحظَت أمي انشغالي بالتأمل في صورتي، كثيرًا ما أخبرتني أن إدماني النظرَ في المرايا سيصيبني بالجنون، لم أهتم، فلست ميالًا لخرافات الأجداد، والجنون أفضل عندي من انكشاف الأسرار والموت خجلًا.

لم يمنع ذلك تفوقي في الثانوية العامة والحصول على مجموعٍ منحني رخصة الالتحاق بكلية الطب.

تطور الأمر وأحببت صورتي في المرآة كما لم أحب شيئًا في الوجود، كانت أجمل من حقيقتي، وكأني قد خلقت نفسي.

برغم أن الصور تشابهت في كلها، فإنني مع كل مرةٍ كنت أدقق وأطيل النظر، غالبًا للعين، عرفت فيما بعد أنهما كاذبتان.

بالفعل كنت أبحث عن شيء جديد لم أكتشفه بعد في خلقتي، وبداخلي.

وصلت إلى الحد الذي بدأْت فيه الحديث مع صورتي، ورغم بدايات الجنون الظاهرة ارتقيت عامًا في كلية الطب.

أخذَ بعدها الحديث مع الصورة يتطور، ولم أتوقف حتى نطقَت، لم يكن صعبًا على أمي أن تلحظ ذلك التطور السلبي الذي طرأ عليَّ، ولدُها يحدث نفسه، توقف عن دراسته، وخاصم العالم.

حاولَت فكَ أسري بكل الطرق كأي أم تخشى ضياع ولدها الوحيد من بين يديها.

أتت بواحدٍ كشفتُ سره على الفور من مظهره، ذلك بالطبع في حضور أبي وبعض الجيران المقربين، أصر الرجل نفسه على وجودهم، يبدو أنه اعتقد في وجود مارد عظيم بداخلي، والأمر يحتاج إلى رجال أشداء، كان عرافًا كما أخبرتني أمي بعدها، وتأكدت من دجلهِ بنفسي، جعلت منه أضحوكةً أمام الجميع، ادّعيت أن ما قرأه على رأسي قد أصابني بالعمى.

مثَّلت دور الأعمى بإتقان، حتى إن عينيّ على اتساعهما لم تريا شيئًا، لم أعرف قبلها أنني أمتلك موهبة التمثيل، التجربة خير برهان.

أشفقت عليه صراحةً بعد أن خالت عليهم تمثيليتي، محاولاته الجاهدة لجمع شتات نفسه، ارتعاداته الظاهرة، همهماته العجيبة، والمريبة، علت في المكان، تناثرت إشاراته في كل الاتجاهات، أحسست أن السقف سينطبق على رأسي، ما اضطر أبي تحت تأثير خوفه على ولده أن يطرده من المكان، لكن الدجال أصرَّ على إثبات قدراته بتمثيلية يتفوق بها على خاصتي، لم يمنحوه وقتًا كافيًا، بدأ في صب لعناته على الجميع، فأهانوه بقسوة، سحلوه على درجات السلم وهو يقاوم باستماتة، أخافتني نظرته الأخيرة، قال: (سأجعلك تتمنى مجرد الرؤية).. كما لو كنت قد عاديت الشيطان بذاته، ألقوه في عرض الشارع كطفل مشرد، غادر تطارده اللعنات، منحتهم شهرًا كاملًا من تأنيب الضمير، بعده فتحت عيني من جديد، ربما لأنني مللت لعبَ دور الأعمى.

حصلت بفعلتي على تصريح غير معلن أن أحــدث صــورتي وقتما

شئت، في عمر الرابعة والعشرين اكتشفت أنني أحيا خارج إطار الحياة.

خسرت كل شيء لأجل صورة مكررة، وتوقف بي التاريخ.

لاحظ الجميع ممن رأوني بالمنزل تبدُّل ملامحي وهم قليلون، لم أشعر بذلك.

طبيعي أن المتابع للشيء لن يلحظ ما يطرأ عليه من تغيُّر بدرجة كبيرة، وقد كنت أتابع ملامحي طول الوقت.

البطء يقتل حتى الملامح.

في تلك السن سمعت من والدتي جملة "ما شاء الله، صرت رجلًا".

تفاجأْتُ بما صِرتُ عليه.

رغم إيقافي لكل شيء، فإنني نسيت إيقاف العمر، تركته يمر دون انتباه، الرجولة غزت ملامحي ماحيةً بقايا براءة الصغر، واضيقَّت العينان.

حكايات كثيرة بين نفسي والمرايا، والحكايات كأي شيء تنفد مع الوقت، لذا طالت فترات صمتي أمامها.

وجاء اليوم المشؤوم، لم يتمالك أبي غضبته وثارت ثائرته، تلبَّسهُ الخوف واليأس، وربما خيبة الأمل في منتجه الوحيد، أحسَّ أنه حرثَ أرضًا عاقرًا قتلَت بذرته.

اقتحم غرفتي مهتاجًا وكسّرَ كل المرايا، صوته غطى على أنّات الزجاج، لم يُبقِ واحدةً بالبيت كله، تلك هي اللحظة الأولى التي خفته فيها كعدو، تعرفت على مخلوق جديد غير ذلك الذي اعتدت عليه،

بعيونٍ متوحشة، تكسرَت روحي بعدد الشظايا، وكرهته أضعاف أضعافها حين قال:

- تخلص من هذه العيون البلهاء، وعد لرشدكَ.

مرت فترة لأتعود غياب صورتي، فترة آذتني كثيرًا كما لو أنها أعراض انسحابها من جسدي، بكت خلالها أمي أكثر من أي فترة مضت، وارتاح أبي بفعلته.

نجحَ في حياته، شكّلَها بإرادته الكاملة، ولم ينازعه في الأمر أحد، كنت أخاف غضبه حتى من قبلها، واستمر الأمر إلى السن التي تسمح لي بالاستقلال التام.

استغلَّ كل فرصةٍ أتيحت له، وبالطبع لم يضيّع فرصة التعافي من الجنون التي حاولتُ إظهارها.

رفضتُ مرارًا تحقيق رغبته في مواجهة الخارج، شعرت أن إلحاحه لن يتوقف إلا بقتله، بالفعل تبعته مرغمًا لشراء ملابسَ جديدة، كنت قد نسيت قدرتي علي الاختيار، وأصرَّ هو أن يعيدها إلي نفسي دون تخيير.

احتلت المرايا كل شبرٍ من الشوارع التي نسيتني لسنوات الانقطاع، السيارات، واجهات المحلات، النوافذ، والفتارين. تغير العالم كثيرًا لدرجة أني لم أعرفه، حاولت تجاهل المرايا وأغمضت عيني، كنت خائفًا كطفلٍ صغير في زيارته الثانية لطبيب وخزَه بالإبرة في المرة الأولى.

اختار لي أبي كعادته، وفي مكان تجريب الملابس لم أستطع تجاهلها، عندما أغلقَ الباب أطبقَت على روحي، صور غير متشابهةٍ لنفس الأصل ضيّقت الخناق عليَّ، ضيَّعتني، أحاطت بي كأنها تريد ابتلاعي، وقتلي.

كسّرتها في ثورة جنونية، ثورة دامية، سالت الدماء من يدي بغزارة لتغرق كل الصور، تعلّقْت برقبتي كالمشنوق، أحاول رفع عيني لأعلى كي لا تقع على الشظايا، أو في عين أبي، احتاجت جراح البدن إلى تقطيب عميق، ولم أشترِ الملابس التي عانيت الخروج لأجلها.

استمررت في لعبة التظاهر بالتعافي من الهوس بعد الحادث، والغرض أن ينسوا، رأوني طبيعيًا كما أرادوا، رغم أنني تحسَّنت تمثيليًا (فقد دربت عيني على الحياة) فإن الاستمرار بدا مستحيلًا حتى وإن تعافيت من هوس المرايا، لا بد من بديل، وبديل دائم، على الأقل إلى أن أكتفي.

رفــضَ والــدي فكـرة احتواء حجرتي على جهاز تلفاز، هــو في حد ذاته مرآة حين يغمض عينه، كما أنه سيزيدني عزلة فوق عزلتي، وذلك أشد ما يكره.

تدركون ملل البحث عن شيء نفعله، أي شيء، شيء مجهول الهوية، لكننا لا بد أن نفعله، العجيب أننا في هذه اللحظات نمارس الملل لنتغلب على الملل، وقتها فتحت نافذتي في وجه القمر، تقبَّل دعوتي على الفور، صنعَ لي ظلًا من روحه، كانت مرتي الأولى التي أفعلها منذ موقف الدجال اللعين، والأولى أيضًا بعد اختفاء صورتي، تشكَّلَ الظل، وبدأت علاقتي به، اكتشفت أنه البديل المثالي، والحل الرائع لكل معاناتي، فأبي لن يقدر على تحطيم الجدران، ولا على إغراق الكون في الظلام، مع هذا أخفيت سري، وحاولت التفاعل مع الآخرين بحذر شديد، كان الأمر صعبًا في بدايته، استعدت بعضًا من قدرتي علي مواجهة الحياة، رغم الرغبة الشديدة في فراقها، وإيماني بعدم جدوى التعاطي معها.

عدت إلى جامعتي، وفشلت في تكوين صداقات من أي نوع، لأنني استغنيت عن الجميع بواحدٍ فقط، هو ظلي، تطورت العلاقة بيننا، كان صاحبي، وأنيسي، سري وكتماني، كان حبيبي رغم عدم امتلاكه للعيون.

سنوات حتى وجدتها، تلك التي بدأت من عندها اللعنة، حكيت للظل

عنها، لم يحبها قدر ما أحببتها، وظل السبب مجهولًا، توترت علاقتي به منذ عرفتها، وقل حوارنا، فهو لا يحب سيرتها، وأنا لا أذكر غيرها.

أخيرًا حصلت على بكالوريوس الطب بتقدير عام (جيد) وكنت قد أتممت الثلاثين من عمري، ذلك يعني أنني فرطت في سبعة أعوام من حياتي دون مقابل.

فارق أبي بعدها، واستعجلت أمي الرحيل حتى لا يطول الفراق، تركاني أستعيد حريتي، وأواجه الحياة بدون إلحاح بعد أن خرجت من أسر الصورة، والظل أيضًا.

لم أمعن في الحزن، صحيحٌ أنني بكيت لكن بدون إسراف، الفراق

قدرٌ وأنا أعلم هذا جيدًا.

غابت عني الرغبة الصادقة في تحقيق كامل أمنيتهما، حاولت أن أحيا، واعتقدت أن ذلك سيسعدهما أكثر من بضع قطرات من الدمع لن تكفي لإبعاد الدود عن جسديهما.

لم يكن غيابهما شرخًا في وجه السماء أو ظل الأرض بالنسبة لي، فقد اعتدت الوحدة قبل الرحيل، كل ما حدث أنني كسَّرت آخر مرآة في البيت، خبأتْها أمي في مكانها السري كاحتياج طبيعي عند كل البشر، تعلمون أن لكل أمٍ مكانها السري الذي يعرفه كل الأبناء، أما أنا فقد أرهقني البحث.

كسّرت المرآة وأخفيت مكانها أخرى ستعرفون عنها فيما بعد.

وفّر أبي حياةً ممتازة لمن لا يهتم بالحياة مثلي، ساعدني كي أبقى مستورًا حتى الآن، لم يعقني الجيش لأنني وحيد، وتلك إحدى مزايا الوحدة.

★★★

احتجت سنوات لأستعيد هيئتي الأولى التي أوجدني الله عليها، وبدون مرايا، رأيت صورتي الأصيلة في عيون الآخرين، استمتعت بذلك كثيرًا، تبدّلَ يقيني واعتقدت أن الحياة تستحق مغامرة الوجود، الدلائل أشارت إلى أنني شُفيت من دائي، داء الخوف من الحياة، لم يعد للمرايا أثر عليَّ، بدأت أومن أننا من نخلق الخوف، ثم نحمِّله أقرب أشيائنا، الخوف نحن.

تخيلت أن الحياة على طبيعتي هي أجمل ما في الدنيا، الحياة بخلقتي الحقيقية، أنني حين أنثر إنسانيتي في وجه الأرض ستطرح بشرًا حقيقيين، لدرجة العشق، نعم، عشقت ملء قلبي.

حبيبةً واحدة هي كل ما خرجت به من عالم الجامعة المزدحم، بدا لي عشقًا حقيقيًا، قابلتها في السنة قبل النهائية، لم يكن أبواي قد فارقا بعد، وبرغم التغيرات الحاصلة كتمت سرها، أنتم تعرفون السبب، دفنته في صدري، بعد أول مرة تعرفت إليها تساءلَت عن السر في مظهري، وذلك الثبات الدائم، أخبرتها أن السبب هو كرهي للمرايا، أهدتني بعدها مرآة، لم أعرف نوع الهدية إلا في المنزل، كدت أكسرها

حتى لا يكسرها أبي فأكرهه زيادة، فضَّلت تخبئتها حتى رحيله، وبعد الرحيل نقلتها إلى مخبأ أمي.

فقــدت مــزية الاهتمـــام بمظهري قبلها، حتى بــتُّ أخشي أن أراني صدفة في أي مرآة فلا أعرفني، طرقَت باب حياتي، صارت هي مرآتي، أقسمتُ ألا أنظر إلا في عينها لتظل هي الوحيدة، اهتمَت بكل ما تعلّق بي، انتقَت ملابسي، هذَّبَت النافر من خصلات شعري، وبدَّلت ملامحي في لحظات الحزن.

أستطيع القول أن العالم رآني كما أحبت هي مدة عامين أو أقل قليلًا، وليس كما أحببت أنا.

جربت الحياة بطريقتي الخاصة، أما الحياة في وجود الحبيبة فأمرٌ آخر، لا تضاهيه حياة، كان إحساسًا يشبه التحليق في السماء، فوق أرضٍ أعدت مهدًا للورود، منحتني سببًا لعدم الموت، وحبها.

صورتي في مقلتيها هي كل ما بقى لي من انعكاسات.

أحببت الكلام معها لدرجة أن ظلي غار، تركته يبهت، يبهت، إلى أن اختفى تمامًا، ولم أهتم.

أنهيت دراستي، بعدها بقليل وأثناء فترة التدريب العملي أنهت علاقتها بي، رحلت دون أن تمنحني سببًا واحدًا للرحيل، أما أنا فلديّ ألف سبب يجعلها ترحل، أبسطهم أنني نسيت الاعتراف لها بحبي ولو لمرة، اعتقدت أن خلاء الكون علينا كافٍ، لذا لم أخترها للبوح كما فعلت مع أمي، لم أصرخ لحظة الفراق بصوت مسموع، أما أكثر تلك الأسباب منطقية، أن آخر امتلك الجرأة التي لم أمتلكها قط.

العشق يقتل قبل الموت أحيانًا وقد تيقنت من موتي حينها.

ضاعت صورتي، وضاع الظل أيضًا، عدت لا أعلم شيئًا عن مظهري مـن جـديـد، وعـــادت رغبتي في اللاوجـــود تتملكني، رغم ذلك أبقيت على مرآتها سليمة.

احتجت لفضاءٍ لا نهائي، فارغ من الأسئلة والمجادلات، ليس به مزاحمات، لا أب أو أم، وكانا قد حققاها لي.

من هنا بدأت قصتي، تسلَّمتُ عملي في إحدى الوحدات الصحية النائية بمحض إرادتي، أردت الابتعاد عن أي عين تعرفني، وعن الزحام، لعلي أنجو من الذكرى.

لم تختلف العيون الغريبة كثيرًا، شيء لم يرقهم في مظهري، وربما أشياء.

اضطررت وقتها لنفخ التراب من على وجه المرآة الوحيدة الباقية، علقتها في مستوى منخفض يتيح لي تعديل هندامي دون الاضطرار لمواجهة ملامحي، أما الباقي فقد استدعيت حلاقًا إلى المنزل لمرةٍ في الأسبوعِ؛ تكفل هو به.

كان حلًا مقبولًا لمن يخشى الحديث مع صورته، واستعادة مرضه القديم.

رويدًا رويدًا ارتفع مستوى المرآة، حتى اكتملت الصورة، ساعد في ذلك موت الحلاق وخوفي من أي آخر، عدت قادرًا على الصمت في حضرتها، أو لنقل عدم الحديث معها. (للأمانة حزنت على الحلاق الذي كنت قد بدأت التعود على زياراته).

ربما هو سحرها الفائت الذي فك عقدتي، وأزاح عني هوسي.

عنَى ذلك أنني تخليت عن جنوني، ولم يعد أمامي سوى استهلاك المتبقي من حياتي خائفًا.

في العمل أدَّيت بشكل ميكانيكي بحت، لا يمت لطبيعة البشر بصِلة، أخذت حذري قدر استطاعتي، فإيماني بأن الآخر هو الجحيم تنامَى لمنتهاه.

ألقاه القدر في طريقي، كان في مثل عمري، لكنه سبقني بسنوات توقفي الضائعة بين الصور، مرض لعين عبث بصدور أهل القرية، مرض مجهول الهوية، أعراضه تشبه السُل وآثاره تفوق عِلم الغير متخصصين، ما اضطرنا لإخطار الإدارة الصحية، وجاء منتدبًا ليُحجِّم المشكلة، عمل بيننا لأكثر من شهر.

فشلت في اجتناب طريقه وعدم التعرف إليه، كان الأمر خطيرًا بدرجة جديّة ومثلي يخشى كل ما هو جدّي، وجدته ممتلئًا بالإنسانية تجاه الآخرين من دون غاية، شعرت أنه صورتي المعكوسة، صورتي الموجبة التي لم أمتلكها مطلقًا، اقتحم عزلتي في البداية بحكم العمل، ثم بطيبته وخفة ظله، وثقافته اللامحدودة، اقترب كأنه عاش معي لسنوات، كأنني لم أضل الطريق، وشعرت أنني أحفظه كاملًا، ولأنني معدوم الخبرة في تلك العلاقة التي يسمونها (صداقة) انسقت إلى عالمه الخاص، بالفعل كان عاديًا وبسيطًا، لكنه لم يشبه عالمي.

شكَّلَ ذلك العالم عنق الزجاجة لعالمٍ أكبر.

صدقوني ما إن تبدأ التعامل مع أحدهم حتى تنفتح بوابة الآخرين أمامك، طرقت باب الدنيا من خلاله، ولم أنتظر طويلًا خلف الباب.

دخلت المتاهة، صور كثيرة، ذابت في عيني كل الملامح، وصرت لا أميز أيًا منها، ساعدني (كرم) كثيرًا، ذلك كان اسمه.

قال لي بالحرف الواحد:

- كلنا صور، وعليك أن تميّز الأصل من صورته لتقدر على الحياة.

قالها بنبرةٍ هادئةٍ، كما لو أن الحياة لا تحتمل تعريفًا آخر.

ولأنني وثقت به أخذت كلماته محمل الجد، بدأت الانتقاء بدايةً من الزمـــلاء، وحتى المــرضى بحـذرٍ شـديد، فـلا خبرة أمتلكها في الصـــور أو العيون، وساعدني (كرم).

لم أدرِ سر ذلك التقارب السريع بيننا، ولأني أومن بالأقدار استسلمت، حاولت أن أطيل حياتي قدرَ المستطاع.

انتقلت إلى المستشفى المركزي الذي عملَ به، مكانه الذي عاد إليه بعد إنهاء مهمته، ألهمني اختيار قسم الصدر، صرت معه أغلب أوقاتي مخيرًا أو مسيرًا، لم أبذل كل الجهد، فرواسب الماضي باقية، لكن المبذول من الجهد كان كافيًا من وجهة نظري وقتها.

بعدها تبيَّنت غايةَ القدر من تقاربنا، قسوة ما رُتبَ لي أعادني إلى عزلتي منذ عام تقريبًا، عجزت عن العيش وسط هؤلاء، وسط العيون المتطفلة، والموت، وسط المرايا.

خاصمت مهنتي، وكل من عرفتهم فترة الحياة، العجيب أنني بادلت جنونًا بجنون، وهوسًا بهوس.

استبدلت المرايا... بالظلال.

وصورة واحدة بخيالات الجميع.

كل ذلك لأني عشقت الضوء الخافت، وفقدت الحياة.

★★★

لكل نصٍ جزءه السخيف، فالنصوص تشبه دنيانا، والسخافة لن تغيب عن أي جزء من هذه الحياة ما دمنا نحياها، العالم يضج بها.

أرى أن محاولة تجميل السخف هو نوع من تشويه الحقيقة، والتحايل على الواقع المرير.

هناك أشياء كالقهوة، مرةٌ في طبعها، والمبالغة في إخفاء مرارتها قد يفسدها، فربما كان سر الجمال فيها هو المر ذاته.

هذا ما نشعر به حين يغيب أكثر الرفاق سخافةً عن المجموعة، يُطبق الصمت والملل، وتفقد الجلسة أجمل ما فيها، تفقد روحها، ونقطة التوافق، وأحيانًا المرح.

هذا ما نشعر به في الليالي الأولى بعد فراق الحبيب، فربما يكون السخف الناتج من الجدال أجمل من حالة التوافق ذاتها، أجمل ما في العلاقات بين الأحبة لحظات المُصالحة.

اخترت منح سخافة النص كلها جزءه الأول، وأعتقد أن من تحمَّل الجزء السابق من حكايتي سيتجاوز ما بقى في يسر تام.

أنا لا أسوق مبررًا لبدايتي، ولا أحاول تجميل الآتي، فلديَّ اليقين الكامل بأن التوازن يحتاج القليل من الملل، ليكتمل الإمتاع.

وكنصيحةٍ أخبركم أن الأشياء متناهية الصغر، والتفاصيل الدقيقة، هي التي تميز الحكايات عن بعضها البعض، وهي التي تضفي صفة الجودة أو السخف.

من ضمن هذه السخافات قصة لا يمنعني ضباب الذاكرة أن أتذكرها، إنه يوم قديم يشبه الحلم المزعج، هناك أشياء ترسو في قاع الماضي، وأخري تظل عالقة بالذكري وإن جاهدنا في النسيان.

يومها استيقظت فزعًا على صوت صرخاتٍ لأمي، أحدهم يقتلها، خالفَت عادتها لأول مرة ولم تكن موجودة بجواري عندما أيقظني الليل، كدت أصرخ، تذكرت أنه من الأفضل ألا أفصح عن وجودي، فالذي يقتلها سيقتلني بالتأكيد إن علمَ بأمري، ولم أكن قد أحببت الموت بعد، تكوَّمت تحت سريري لدقائقٍ، استمر الصراخ أطول مما اعتقدت، الجسد لا يحتاج كل ذلك الوقت ليخمد، فقط صوتٌ يشبه الضحك هو ما منحني الجرأة للخروج واستكشاف الأمر، لا أحد يضحك عند موته، عاودت أمي صراخها، من قريب لم يشبه صرخات الموت، إنه نوع آخر غريب على مثلي، تأكدت أن مصدره حجرة أبي، صوته شجعني على اقتحام الحجرة، من ذا الذي يخاف في حضرة أمه وأبيه؟ لم يكن معها سوى أبي فوق السرير، حاول مداراة لحمه ولحمها عن عيني، لم أكن بحاجة لإيضاحات، قفزت فوقه أضربه بعنف، حتى إنني خدشت ذراعه بأظافري، ضحك وهو يحتويني في صدره، ضمني لأعود مرة أخرى إلى اللحم الذي أنبتني يكفي وجهه شر أذاي.

قالت أمي مداريةً خجلها: أبوك لا يضربني، أبوك يحبني.

أمَّنَ أبي على كلماتها، أعـــرفها حين تبكي، ولم تبدُ عليها أمـــارات البكاء، فقط عرقٌ غزير، ولمعة يكشفها ذلك المصباح الجانبي الكئيب، لم تكذب عليَّ أبدًا، لذا صدَّقتها.

ارتبــط الحب عندي بالصــراخ والعرق، أمي تحب أبي، الفـلاح يحب فأسه، الحمالون يحبون أثقالهم، والأولاد يحبون الركض وراء الكرة، أما أنا فأحببت الفتاة التي فقدتها، صحيح أنني تنازلت عن اعتقادي مع مر السنين، لكني أتذكَّر آخر مرةٍ جلست فيها بجوارها، تعرَّقت حتى ابتلت الأرض من تحتي، لم يمنعها ذلك، صرخْت في غيابها، لكنني كتمت صراخي حين همَّت بالغياب، لماذا لم أُسمعها صوت صراخي؟

لست أول من سيتحدث عن فقد الحبيب، عن رغبة القتل، المرض، الانتقام، ولن أكون، لكنه عالم التفاصيل الصغيرة التي تبني الأساطير، انتبهوا للتفاصيل أرجوكم، أو اتركوها لغيركم، فهي كل ما يستحق الحكي في هذا العالم الذي لم يعد يحمل جديدًا.

★★★

(٣)

عيون ولد غريب

لم أعرف سر انبهاري بـ(كرم).. ولا انسياقي الكامل وراءه، حتى إنني انتقلت معه إلى مستشفى الصدر المركزي بعد فترة وجيزة من الفراق، اختار ذلك الفرع منذ البدء، فاخترته من دون تفكير، الصدر يحوي نفس العضو الذي أردته، كان على وشك إنهاء دراسته العليا، وكنت أحبو في الطريق.

أجمعَ الأساتذة على أنه فلتة عصره في تخصص الصدر، رأيته يتعامل ببساطة مطلقة مع قسوة المرض، يشفي الصدور بكلماته الحانية، تعلمت منه الكثير رغم انشغالي بأشياء أخرى غير العلم، صار يمثل توجهاتي في الحياة، بدأت ملاحظاته تظهر على شكلي، ملابسي، وحتى ابتسامتي النادرة الظهور.

لم يشعرني بالفارق العلمي الذي تسببت فيه بجنوني، بدأ تفاعلي مع المرضى يظهر رغم أني لم أتذكر واحدًا منهم في زيارته الثانية، فالعمل في وحدة ريفية يختلف تمامًا عن مستشفى مركزي، قسم الصدر، حيث العناء لمجرد استمرار التنفس، وحيث الهواء يحمل رذاذ الموت البطيء.

تهرَّبت منه كثيرًا، تعللت بأسباب واهية كي لا أنفتح على دنياه، يبدو أن شيئًا أخافني من الانخراط في عالمه، رضيت واكتفيت بما حققته من علاقات محدودة، لا تتجاوز حدود صلاحياتي العملية، إنها تركيبتي النفسية التي لم تكن لتسمح بأكثر من عالمٍ محدود جدًا.

أرادني أن أزور معه ذلك المقهى الفخم الذي يداوم على التواجد فيه.

في إحدى المرات ركبت معه سيارته، كان يوصلني كالعادة، وكنت قد

استنزفت كل أسبابي، غيَّر اتجاهه لبيتي، حكى لي عن ولده صاحب السنوات الثلاث، وأنا أعشق حكايات الصغار، فأمي لم تكن تحفظ منها شيئًا، نسيت الاتجاهات ولم أستفسر عن الطريق الجديد.

وضح جدًا تعلقه بولده حدَّ الاعتناق، ولم أمتلك واحدًا مثله من قبل لأضيف على كلماته، بدا لي أبًا مثاليًا، لم يشبه أبي، حكى عن كل تفصيلة صدرت من ولده، كيف يلاعبه ويمنحه الأحلام السعيدة، كيف يستقبله عند الدخول، ويبكي عليه عند الرحيل، أشياء كثيرة، حتى تساءلت في نفسي:

(أي حزنٍ قد يصيبه عند الفراق؟).

أخبرني بقصة مع صغيرِه عند البحر، كان يعلِّمه رميَ الحصى في الماء، قال لي إنه لم يقلده في رميه أبدًا، أصرَ أن يلقي حصواته إلى أعلى، ظنَّ أنه يفعلها بالخطأ، حين حاول تصحيح المسار، قال له الصغير إنه لا يريد البحر، بل يريد القمرَ أن يسقط من السماء ليلعب معه، سأله: ألا يكفيك أن تلعب معي؟

فأجابه: سألعب معه عندما تغيب فقط.

رأيت خوفه لحظتها ألا تصل حصوات ولده إلى القمر إن غاب.

أوقف سيارته أمام مقهى فخم، وضحَ لي أنه المقهى الذي حايلني كثيرًا لأزوره معه.

وجدته بالفعل يستحق المحايلة من أجل زيارته.

تستطيع أن تتبين مدى شهرته وذيوع صيته في المكان من الوهلة الأولى، كلهم رحبوا بحضوره، كـان ركنه الخـاص معـدًا لاستقبالـه قبل الوصول، بل وطلباته المحببة قيد التجهيز.

رغم اختلاف الملامح في كل وجهٍ حاضرٍ، فإن إحساسي بهم كان واحدًا، لم يكن بيني وبينهم ثمة ضغينة واحدة، لكني خفت العيون، واجتنبتها.

قال ضاحكًا:

- يبدو من عينيك أنك تائهٌ بين الوجوه.

بالفعل تهت حتى عن روحي، حاولت تجاهل زحمة العيون ولم أقدر، فظهر الأمر على وجهي.

من بين كل الموجودين اخترت وجهًا واحدًا لأدقق فيه، كان لأحد العاملين بالمقهي كما بدا من زيّه، رأيت عنده ما لم أستطع تفسيره مطلقًا، بدا كمن يعاني الكتمان، حزينًا، خائفًا، وربما ضائعًا، تعلَّمت نظرة الحرمان من حبيبتي، وقد رأيتها فيه.

لمحته يرمقني بنظرة لا تشبه تلك التي يمنحها للآخرين، نظرة رجتني أن أتابعه، وأنبأتني بالقادم.

اقترح (كرم) مشروبًا لي، قيَّده الولد في دفتره، وترك عينيه تشعلان فضولي وحيرتي.

لم أتواءم مع الصخب يومًا، وكان اختيار (كرم) لليوم غير موفقٍ،

فخياراتهم الموسيقية لم تتناسب مع حبي للهدوء.

التهبَ المكان حين أعلن صاحب المقهى الخمسيني عن حفلٍ وصفه بالبسيط.

ازدادت الموسيقى صخبًا، والحاضرون هياجًا، التهبت الصالة عن آخرها كأيام العذاب الأخير.

كان الصوت قويًا حدَّ الألم، بينما الجميع يستمتعون، أحسست أنني أحضر (زارًا) صنعوه ليفرغوا مكبوتات أرواحهم البائسة.

أذاعَ صاحب المقهى سرَ حفله البسيط، وهو زواجه من إحدى العاملات لديه.

بدت بريئة جدًا، وجميلة جدًا، عيناها تستبطنان حزنًا مهلكًا، وتبديان سعادة ظاهرة، كانت تشبه حبيبتي الضائعة تمامًا.

لحظةَ أعلنها انفجرت الحناجر بالهتافات المهنئة، علا التصفيق حتى طفحَ طنينًا من أذنيّ، ساق ذو الوجه الحزين كعكة الاحتفال على عربة زجاجية لها عجلات صغيرة.

كاد ضغط الأصوات على الجدران أن يفصل بعضها عن بعض، أحسست بها تنتفخ، حتى خفت أن تلفظنا للخارج في انفجارٍ شنيع.

انساب صديقي في نهرهم دون أن يلتفت إليَّ، ضغطتُ بكفيَّ على جانبي جمجمتي، أغمضت عيني في ألم رهيب، رجوت الله أن يقتل الصخب، كنت على شفا الصراخ لولا أن فعلها وأوقفَ الضجيج.

رأيته يطيح بكل شيء أمامه، صوت زجاج العربة الصغيرة يتهشم

أجبرني على استعادة الرؤية، أفسدَ كعكة الاحتفال، دهسها على الأرض وحطم أقرب ما طالته يداه، وزَّعَ أنفاسه المتهدجة على الحاضرين، جال في أعماق أرواحهم عبر العيون الصامتة للحظات كوحشٍ يتحدى مهاجميه، ثم فرَّ هاربًا من عالمهم بغير فريسةٍ.

لن أنسى نظرته الأخيرة لي، نظرةً منحتني قصةً كاملةً لشابٍ حزين، يقتله الوجع ويسحق قلبه.

عيناها فاضتا بدمعٍ من نوعٍ خاص، دمع لا يكفي إصلاح الموقف أبدًا، بل أفسد ابتسامة صاحب المقهى.

فزعتُ من جلستي، غادرت المكان متجاهلًا نداءات صديقي، غادرت جحيم الاحتفال ساخطًا، وقررت عدم العودة، حاول صديقي اللحاق بي ولم أدعه ينجح.

لم أعرف كيف وصلت شقتي، عندما دخلتها أخذَ قلبي يؤلمني بشدة، تهافتت أنفاسي، استعدت لحظة الفراق الأولى بكل تفاصيلها، أغلقت الباب من خلفي في وجه الدنيا، عدت وحيدًا كما أردت منذ أول خلقي.

★★★

(٤)

قتل غير مبرر

الموت والحياة متعانقان، لا يفصل بينهما سوى طبقة شفيفة من الروح، شكلانية الوجود والعدم ليست هي الفيصل، فأنا ميت منذ مولدي رغم الصراخ المستمر، أو جئت للموت، لا أحب استخدام لفظة (القتل).. بل أفضل مصطلح (خلق الموت).. إنه تعبير مناسب جدًا للخلاص، ومناسب جدًا للآتي القريب، الأمور تزداد تعقيدًا، وجنوني يأخذني إلى مناطق شنعاء، ربما ستعرفونها الآن.

لشهرٍ كاملٍ غبت عن الدنيا، لم تكن المرايا هي السبب في تلك المرة، طاردتني نظرة ولد المقهى مع كل التفاتة تصدر مني، منعتني النوم، اجترت بلايا العشق البائد، فحبيبتي كانت تسكن عينيه.

شهر كامل سرق سنوات من عمري، وجعلني أبدو كهلًا بلحيتي الكثيفة، وشعري المشعث.

هذا ما قاله لي (كرم) في المرة التي فتحت فيها باب الشقة.

مرات كثيرة طرق بابي ولم أفتح، مع كل طرقة باب أعرف أن يومًا قد انقضى، وآخر سيبدأ، أنا لا أحب حساب الأيام.

أشياء مرت ببالي شكَّلها الضوء الخافت على الجدران، بحثت عن ظلي، فلم أجده، وهو الذي سمحت له من قبل بالحياة معي أثناء عزلتي، أهملته حين أحببت، فهجرني.

كدت أجن، حزن الوحدة قد يخرق سفينة العقل، كان لا بد أن أخرج صوتًا ولو على هيئة صرخةٍ، تكلمت، حكيت قصتي للجدران، والخيالات التي صنعتها بيدي، ومنذ نطقَت خيالاتي الجديدة، لم يتوقف الكلام.

خيالاتٌ ربما لا أعرفها تشكَّلت أمام عيني صانعةً ظلالًا لا تشبهني، ولم أخلقها، كلٌ له مأساته الخاصة، آمنت أنهم حقيقة، والإيمان يرغمنا على التصديق.

صدَّقتُ حكاياهم إلى أن فرِغَ مخزون الطعام، كان لا بد وأن أفتح الباب، حين فعلتها وجدته مرتكنًا إلى الحائط، صديقي الذي صدقَت رغبته في أن ينتشلني من براثن الموت.

لم يسأل عن شهرٍ مضى، ولم يستعد ذكرى المقهى، آمنَ أن بئري سحيقة والاعتراف منها أمرٌ مستحيل، ربت على رأسي واحتضنني برفق، بكيت حتى هدأت روحي، اقترح أن أعود للحياة، وكنت أريدها بحق.

هذّبت من مظهري قدرَ المستطاع، كنت أنا من طلبها تلك المرة:

- أريد الذهاب إلى المقهى يا (كرم).

ظن أني أرغب في الشفاء كما ظنوا من قبل، من يُشفق يسهل خداعه، لم يأبه لوقت العمل، تجرَّد من أي ارتباط لأجلي.

- فقط؟ هيا بنا الآن.

أراد فعل أي شيء يصلح لعلاجي، أعتقد أنه أحبني كأبٍ وليس كصديق، بعد قليلٍ من الوقت كنا في نفس المقهى من جديد.

لم نحصل على نفس الاستقبال وأعتقد أنه لم ينقطع عن المكان،

حتى بعد الحادث السابق، هؤلاء هم البشر، يختلف منظورهم وتقديرهم للموقف الواحد، لكل منّا علاقة شديدة الخصوصية بمكان ما، تنفتح قلوبنا عليه، نشعر بوجودنا وقيمتنا فيه أكثر من أي آخرٍ، نصبح أكثر قدرة على التخيل وتلوين واقعنا الباهت، ويبدو أن (كرم) شعرَ بذلك تجاه المقهى.

الغريب أنه زوج، وأب لطفل حكى لي عنه كثيرًا، فلماذا ينفق جل وقته في المقهى؟ ألا يحب زوجته؟ لم يبدُ كاذبًا حين كلمني عن ولده.

لم يتغير الصخب كثيرًا، بل ولم تتغير الوجوه، كأن المكان قد خلق بمن فيه، أحسست أنني في مشهدٍ معاد، لدرجةٍ جعلتني أنتظر أن يبدأ الحفل من جديد.

تلك الدوائر اللعينة التي يسير بها الكون، أي مللٍ هذا؟!

طلبت من النادل الجديد طلبًا بدا له غريبًا بعض الشيء، لكنه استجاب دون كلماتٍ، ولا أظن أنه على علمٍ بجنوني السابق.

أريد أن أُخفف الإضاءة قليلًا في المكان، وكذا مستوى الصوت.

بدا المكان رائعًا حين أغمضَت بعض المصابيح أعينها، هناك أشياء الضوء يخفيها، وأشياء يضيئها الظلام.

تأملني صاحبي بإعجاب:

- إنني أستكشف المكان يا صاحبي، كما لو كانت أول مرة، لديك ذوق رائع، وعينٌ مبصرة.

بالفعل تغيرت ملامـــح المكـــان تمامًـــا، اكتشفت ذلـــك في عيـــون الحاضرين، شيء من الظلام منحه جمالًا مجهول الهوية، شديد الغموض، بالنسبة لي أخفى الظلام كل ما رغبت في اختفائه.

كل الأجزاء الضائعة ظهرت في أجمل ما يكون، ربما لأننا نستحضرها على هوانا، وبمحض خيالنا. مُنحَ الموجودون شيئًا من السكينة، والرؤية الخاصة، ومُنحنت أكثر من ذلك.

عاد النادل إلينا، العجيب أنه أهملَ صاحبي، وصاحبي لم يختر لي شرابي كما فعلَ من قبل، انتظرت لحظات لينطق حتى بدت الدهشة على وجه الفتى، فاضطررت للاختيار بنفسي:

- أريد شايًا لو سمحت.

هذا دائمًا طلب من لا يريد الاختيار من القائمة.

لم أطلب لصاحبي فهو أعلم بما يريد دائمًا.

سجَّل طلبي وانسحب في هدوءٍ يشوبه العجب.

لم أجرب قبلها فِعْل الظلال خارج دنياي المحدودة، شئٌ ما منحني اليقين أن أحدهم سينفصل عن صاحبه لأجلي، وبالفعل وجدت ظلًا يتحرك منفصلًا على الحائط المواجه لي، أراد أن يخبرني بشيء، الصخب منع صوته عني، جاهدت لأستوضح كلماته، وفشلت.

أدركَ الظل مشكلتي مع الضجيج، أشار لي أن أتبعه، نسيت الاستئذان، نهضتَ من مطرحي وتبعته كالمجذوب.

ناداني (كرم) متعجبًا: إلى أين؟

أشـــرت له أنني سأعـــود، ربما فهم أنه الاحتياج لـــدورة المياه، لـم أصحح له معتقده، سرت وراء الظل، ولم يره أحدٌ غيري.

خرج بي من الباب الخلفي للمقهى، خفت أن يضيِّعه مني الظلام،

فالليل حالك، والقمر محتجب، وتلك الحالة التي أحياها ما بين الحقيقة والخيال تتلبسني، أشعر أنه لا شيء حقيقي بين كل ما يحصل لي، العالم من حولي لا يبدو على طبيعته أبدًا.

خطوات قليلة سكن بعدها قرب ضوء أحد الأعمدة، ليستمد منه وجوده، توقفت أمامه تمامًا، الغريب ذلك الإحساس العجيب أنني لم أدخل المقهى، وأن كل شيء يبدأ من هنا، بدأ كلامه بدون تمهيدٍ: صاحبي مسَّه الجنون.

قلت مستغربًا: ومن هو صاحبك؟

تابع دون الالتفات لكلماتي: سيرتكب جريمة قتلٍ شنعاء الليلة، لن يوقفه شيء.

تسمرت بالأرض رعبًا، أنا لا أهتم أبدًا بأفعال الآخرين، لقد اختار الظل شخصًا غير مناسبٍ على الإطلاق، لهجته جادة إلى حدٍ بعيد، هذا يعني أنه يقصدني أنا، الموضوع ليس محض صدفة، تابَع:

- يظن أن أحدهم سرق منه حبيبته، وهو موجود بالداخل. ينتظر لحظةً مناسبةً فقط ليطعنه بسكين، هل تدرك قدرَ الألم الذي يتملَّكه؟ قدرَ العذاب والعنف؟

أمتلِك الإجابة، بالفعلِ أُدرك قدرَ الألم فقد تعايشت معه لسنوات، لكنه لم يصل بي إلى مثل الدرجة التي يتحدث عنها الظل.

يا إلهي، لا بد أنه ولد المقهى، نظرته المحملة بأكبر قدرٍ من العنف لم تزل مرسومة في عيني، ربما لم يلمحها غيري وقتها، لذا اختارني ظله دون الحاضرين، ذلك المجنون، إنه يستحق الحياة، مستحيل أن يكون الأمر بنفس قدر السوء الذي صاحبني، مع هذا ليس القتل ضمن خياراتي، لماذا لا يأتي الموت من ينتظره؟

لماذا لم أكن أنا؟

شعرت بشيء في كفي، التفتُّ إليه، كان سكينًا، اللعنة.. من أين جاء؟ ولِمَ؟

لحظة... أنا أعرف هذا السكين جيدًا، بل وأجزم أنه يعرفني أيضًا، بيننا علاقة تشبه الخلق، لكني لا أجيد صناعة مثله، وإن كنت قد صنعته بنفسي، ما الذي جاء به إلى هنا؟!

صرخ الظل في وجهي: هذا هو السكين، اخفه أرجوك قبل أن يشعر بالظمأ، اخفه قبل أن يصل ليد القاتل.

أصابتني الرعشة، كموتٍ سرى في جسدي طاردًا روحي، من أي جزء في الجحيم أتى هذا اللعين؟

عاودَ صراخه: اخفهِ أرجوك، ادفنه في التراب قبل أن يرتوي، أوقف نهر الدماء، أوقفه.

ركعْت على ركبتي مذعورًا، أخذت أنبش التراب بسرعة تفوق خفقان قلبي، لا بد أن أخفيه، التراب يفسد حفرتي، والأرض قاسية لا تطاوعني، الظل يتابع: أسرع قبل أن يأتي.

لم أجد حولي شيئًا قد يساعدني في خلق حفرة تليق بالسكين، استخدمت أظافري حتى تكسَّرت، نزفت أصابعي ولم أفكر في التوقف أبدًا، كنت غائبًا عن الوعي تقريبًا.

- لا بد أن يتوقف الأمر، لا أريد لهذا أن يحدث.

- هيا إنه قريب.

درتُ خلفي في هوس بالغ، عدت إلى النبش بأقصى ما أوتيت من قوة، متجاهلًا جراح يدي، لا بد أن يختفي، لا بد...

قال الظل يائسًا: الأمر محتوم، لن يوقفك شيءٌ ولو كان وعيك. لقد وصلَ، إنه خلفكَ تمامًا.

تجمّد لحمي، ومن قبله عظامي، لحظة من الصمت مرّت حياةً من الرعب المستمر، شعرت بحرارة أنفاسه تلفح ظهري، ظله يتجدد ويحتل مكان الظل القديم، يمحوه، نهضتُّ مرتجفًا في بطء شديد يتناسب مع خوفي، استدرت فجأةً لتقع عيني في عينه مباشرةً، لم أتبيَّن أكان مُعرّفًا بالنسبة لي أم لا؟

رأيت ذلك الألم يكسو وجهه، الدمع يتدحرج من عينيه الزائغتين، ارتعدت روحه في حلْقه حتى أوشكَت على الوقوع، صوت آهة ذبيحة خرجت من أعماقه، عندما التفتُّ إلى باقي الجسد وجدت السكين في موضع القلب تمامًا، فعلها السكين بغير إرادتي، لم أفعلها أنا بالتأكيد، ليس بيني وبينه ثأر ولا نزاع، بل لا أعرفه حتى.

- اللعنة، ماذا فعلت؟ لماذا؟!

نزف دمًا فاتح اللون كعصير الرمان، ما يدل على أن خطاياه لم تكن مظلمة، البراءة وحدها ليست كافية للنجاة من عالمنا.

سقط الظلام على ملامحه، وسقط الجسد منهارًا، تهدم بنيانه حين جثا أمامي على الأرض، جرَت ذكرياته أمام عدسة عينيه، أدق التفاصيل وحتى التافه منها، عجيب أنني أنتحلُ شعوره، ذلك المشهد ليس بجديد أبدًا، رأيته من قبل في إحدى زوايا رأسي اللعين.

لم تحمل عيناه الرغبة في رد الطعنة، هل أحبَ ذنبي؟

عمومًا هلوسات الموت لا تعطي مقياسًا حقيقيًا، خاصةً حين يكون الموت غير منتظر.

أدرت السكين كي لا يصلح مع الثقب رتقٌ، ولا مع الموت بديل.

انتزعتُ السكين من لحمه بصعوبة بالغةٍ، وكأن السكين عشقَ صدره، كتم صوته أو فقد القدرة على استخدامه، تأملت الثقب الذي يفرغ روحه، حاولتُ سدَّه بكفي، أمسكتُ برأسه وهززتها بعنفٍ، أردت أن أُلهيها عن طريق الخروج الذي مهّدته لها، اصعدي إلى الرأس أيتها الروح، ترجرجت داخله كسائل دواء في اللحظة السابقة لفتح زجاجته مباشرةً، هيا قل شيئًا، اصرخ في وجهي، امنحني سببًا لهذا الجنون، تلاشى ظله تمامًا، وصرخَ الظل من خلفي: اجرِ يا (خالد).. اجرِ.

جريت بلا وعيٍ أو هدف، كان شعورًا مخيفًا، لقد أخفيت أحدهم من الوجود، اقتلعت روح شخص بالغٍ، ما الذي سيترتب على فعلتي؟ أي ألم قد خلقْت؟ أستحق الخسف أو مطر الكبريت، أستحق أن تقوم قيامتي. لقد عبثْت بإحدى معادلات الحياة، لا بد أن النظام سيتغيَّر، أعلم أن

سؤال "لماذا قُتلَ؟" لن يكون مهمًا بعدها، كل ما يهم الآن أنه لم يعد موجودًا، فلماذا نتقصّى الأسباب دائمًا وننسى ما دونها؟

وجدتني في الطريق الرئيسي، صرخَت السكين في قبضتي، تريد أن تفضح للعالم تلك الفعلة الشنعاء... هناك أمر شديد الغموض، لم أشعــر بعفويـة الحـدث أبـدًا، أحسست بترتيب كل شيء مـن قبل فعله.

أخفيتها في ثيابي، وعدوت.

تجاهلت المسافة التي قطعتها هرولةً، لكنها مسافة كفتني للابتعاد عن المقهى، وعن مسرح الجريمة.

استقللت سيارة أجرة، داريت وجهي عن السائق بعد أن جلست بالمقعد الخلفي، المرة الأولى التي شعرت فيها بحاجتي لمخاصمة الدنيا، والاختباء، كان عاقلًا، كفاني مناهدة السائقين، ولم ينبس بعد سؤاله عن العنوان.

نزلت على مسافة كبيرة من سكني، قطعتها جريًا، مستترًا بالليل، ضمّني في عباءته السمراء، وأخفاني عن العيون، ربما أطاعني الليل، لكن المسافة عاندتني بشدةٍ، حين وصلت شقتي كانت كل قواي قد خارت، ورئتاي تعانيان حدَّ الانفجار، اكتسيت بالعرق كعود برسيم حطَّ الندى عليه، نفدَ وعيي من ألم الصدر اللعين، نسيت ما حدث بعدها، يبدو أنني سقطتُّ مغشيًا عليَّ، وأظلمَت الدنيا من ورائي ليوم بأكمله أو يزيد.

★★★

(٥)
تخييل

لي سنة لم أغادر فيها الشقة، لا أعرف ماذا فعلوا بوظيفتي، لا أحد سيهتم كالعادة، ولن يظهر الكون خاليًا من دوني، أحدهم طرقَ بابي كثيرًا، ربما أرسلوا جواب فصلي من العمل، في كل مرةٍ كان قلبي يدق مع الباب، في كل مرةٍ كنت أضع يدي على صدري، وأكتم الصوت كي لا يشعر أحدهم بوجودي، شهور حتى صمتَ الباب، تركت قلبي بعدها يعمل على طبيعته.

أكيدٌ ظنوا أنني قضيت نحبي، أو هاجرت، قطعت كل وسائل الاتصال الممكنة بي، حتى هاتفي المحمول تغيَّرَ رقمه، أبقيته فقط للطعام، اخترت بقالًا يبعد عن مكاني، أغويته في المرة الأولى بالمال، صار يترك لي الأكياس خلف الباب بعد طرقات متفقٌ عليها، وأترك له النقود بزيادةٍ أسفل المشاية، لا بد من الزيادة، فأنا على يقين من تردده في كل مرة رأى فيها رقمي، والنقود فقط هي القادرة على تخفيف حدّة توتره.

أشعر أن الظلام كسَا لحمي تمامًا، لم أتخيل أن للضوء تلك الأهمية العظيمة، غيابه حوّلني إلى شبحٍ، مجرد ظلٍ يقدر على التنفس والحكي، أما الحياة فلا.

لحيتي طالت صدري، صارت هي الشيء الوحيد الذي يمكنني رؤيته جزئيًا من كل وجهي.

إحساسي بالقرف الشديد من نفسي، قضاء ساعة كاملة تحت الماء لم يفلح في تغيير إحساسي بذلك، الأماكن تنطبع في نفوسنا، كما هي انعكاسٌ لنا، والمكان صار مقرفًا بحق.

ذلك الإعياء الشديد الذي يتملكني، الأنفاس الباهتة، وحنايا ذاكرةٍ ترفض الانصياع، مريض أنا ومرضي الحياة.

فقدت مستقبلي عندما أغلقتُ بابي، فالظلال كلها تحدثني بصيغة الماضي التام، وللأمانة فقدت شهيتي للقادم منذ سنين.

أعرف أنه يتوجَّب عليَّ الحصول على ظلال جديدة غير تلك التي اعتدت تشكيلها بيدي، حتى لا أموت قبل اكتمال الحكاية.

الموت يستحق عندي أمرًا آخر غير الملل، لكن هذا يعني أن أفتح الباب من جديد، وأنا أكره ذلك كراهيتي للحياة، ربما هو خوفي على العالم إن فتحتُ الباب هذه المرة.

سأعود كمكونٍ من مكوناته، سيلتفتون إلى وجودي، سأغيّر المعطيات، فتتغير النتائج، وتصير إلى غير قدرها.

لا.. لا لن أفعل ذلك، سأترك لهم حياتهم على طبيعتها، وأبقى كما أنا، ظلٌ بانتظار الموت.

لم ألقِ بالًا للصحف من قبل، مرةً واحدة تعجب مني بائع الصحف حين رآني، كان الأمر يتعلق بخبر عن موت طبيب وزوجته داخل غرفة العمليات نتيجة انفجارٍ في أنبوب الأكسجين، احترقا لدرجة التفحُّم، من

وقتها وأنا لم أمس صحيفة، العجيب أنني مازلت أحتفظ بالعدد نفسه ولست أعرف السبب.

سأعود إلى غرفة المعيشة، أتمدد على أريكتي الوثيرة أمام التلفاز، ولنرَ ماذا يحمل لنا.

أشعر أنني تائهٌ بين القنوات، لا شيء جديد، كله مُعاد، الوجوه، والأحداث، يبدو أن الدنيا لم تتغير بالفعل في غيابي، أكيدٌ أنهم يعانون بالخارج نفسَ الملل.

لماذا لا يتوقف الهراء؟ إن كانت الحياة كما يعرضونها على الشاشات، فلماذا لم ينحتوا إلهًا للموت؟ أو إلهًا للقتل؟!

سيكون جيدًا لو فعلوها، لربما ارتكبوا جرائمهم بعدها بشيء من القدسية.

تأملت صور القتلى، ليس هناك سمت واضح يميزهم عن غيرهم، لا يمتلكون صفةً قد تقرب القتل منهم أو تعطله قليلًا، الطيبون يُقتلون بطيبتهم، والأشقياء بشقاوتهم، هذا يعني أن القتل لا يعترف بالنظام، إنه عابثٌ عشوائي.

(انعكسَ ظلٌ على الحائط، مرت ثوان قبل أن ألمحه، ما اضطر الظل للتنحنح كي يعلن وجوده، حين رأيته برقت عيناي عن آخرهما، أصابتني رعشةٌ تشبه الموت، إنه ليس من خلقي، ولا تشكيلي، فلا بد أن تخرج الكلمات مبتورة).

- من.. من أنت؟ أنا لا.. لا أعرفك، لست من ظلالي.

- بل تعرفني أكثر من أي ظلٍ.

أشعرُ أن الصوت مألوفٌ لي، فقد تفنى الصورة، ويبقى الصوت، التراب لا يأكل الأصوات أبدًا.

- يبدو أنني فقدت الذاكرة، لكني أعتقد أنك حضرت مشهد الـ...

- نعم أنا هو.

- والآن؟

- (خالد). أنت لم تقتله.

- وكيف ذلك؟ لقد حضرتها بنفسك.

- كنتَ ممسكًا بالسكين، أما هو فمات محترقًا.

- لقد طعنته في القلب مباشرةً، ورأيت عينيه تفرغان من الروح.

- وهذا يثبت كلامي، لو أنك قاتله ما احترق جسده.

(حلت كلماته جليدًا فوق رأسي، أشعر بأطرافي متيبسة تمامًا، لا جزء من جسدي يستجيب لإرادتي، ولا حتى اللسان).

- أعلمُ قدرَ دهشتك، لكن هذا لن يغير من الحقيقة شيئًا، أنت لم تقتله.

(أحس باستعادتي للساني جزئيًا).

- أنا.. أنا.. أنا لم أقتله؟! كيف؟! لقد خضَّبت الأرضَ بدمه، لمستها بكفي هذه، رأيت الموت في عينيه، وأسلمَ روحه للسماء راغمًا.

- لم يمت بالسكين، مات محترقًا.

- أنت تكذب.

- الظلال لا تكذب يا (خالد).. ألا تعرف هذا؟ إن أردتَ تأكيدًا فقم واتبعني، سأريك ما لا تتخيل.

- أتبعك؟! ولماذا لم تخبرني من قبل إن كنت صادقًا؟ لماذا تركتني أعاني الخوف كل ذلك الوقت؟ هل أمتعكَ خوفي؟

- لم تسألني.

- لم تكن موجودًا.

- من أراد شيئًا بحث عنه، وأنت لم تبحث، صدَّقتَ فعلتَك وعشتَ بها.

(أفرك عيني لأتأكد أنني على قيد الواقع).

- هذا يعني أن أحدًا لم يعرف شخصي.

- ولا أي شخص.

- كيف والسكين لم يزل معي؟

- ما بيني وبينك هي الحقيقة، والحقيقة لن يخطئها النظر.

(يتحدث بلهجةٍ واثقةٍ، أنهار على الأريكة منهكًا، خروج سنةٍ من الخوف المتواصل دفعة واحدةً من الجسد قد يرديه، أنفاسي تتلاحق).

- حتى وإن صدقتك، كيف سأقابل الدنيا بهيئتي هذه؟

(لقد تغيَّر لون جلدي، الخوف والظلام قد محيا ملامحي الأولى، لن يعرفني حتى من كان يعرفني. أخشى ألا تتعرف الشمس عليّ فتحرقني).

- أليس ذلك أفضل من حصار الخوف؟

(سؤاله منطقي، مادام الخوف موجودًا بالفعل، فلن يحدث الأسوأ بالتأكيد، لا شيء يفوق الخوف لنخشاه).

- لكن هذه الهيئة التي أبدو عليها ستثير الريبة، أبدو كمتسولٍ قديم، كمعتوه، وكليهما محطُّ أنظار المارة.

- عليك ألا تشبه نفسك الأولى، عدِّل هيئتك فقط بقدرٍ يسير.

- نعم.. نعم سأصفف شعري، وأهذب لحيتي، لا لا سأتخلص منها تمامًا، الشعر المعقود للخلف جديد عليَّ، مع لون الجلد سيكفيان، لكني أحتاج وقتًا لأفعل هذا.

- يكفيك حتى شروق الشمس، سأمر عليك حين تطلع، أري للأمر أن يبقى سرًا.

(ابتلعَ الحائط ظله كقطرة ماء صبت فوق الرمل الساخن).

- الآن ماذا أحتاج؟ ماذا أحتاج؟ نعم.. ماكينة حلاقة، بل اثنتين، معجون وفرشاة، و... و... نعم المرآة، مرآتها.

(أمسك هاتفي المحمول، أطلب الرقم الوحيد المسجل عليه).

- أهلا... أريد ماكينتي حلاقة من النوع الجيد، معجون، وفرشاة لو سمحت.

(أذهب إلى المخبأ الذي حاولت نسيانه، أخرج المرآة، أمر بيدي فوقها لأعيد صورتي إليها، أتحسس لحيتي مستجديًا الابتسام).

★★★

صحبني إلى آخر مكانٍ توقعته، إنه المشفى الذي كنت أعمل به، قادني إلى الطابق الذي مازلت أخشى ذكراه، العناية الفائقة، رغم عدم ارتياحي إلا أنني أطعته، صعقت حين رأيت الذي حلَّ بالمكان، إنه محترق عن آخره، ويبدو أن وقتًا قد مرَّ ولم يغير أحدٌ من واقعه، أشار نحو الحجرة في المواجهة، توقف الزمن كي يعود المكان لأصله، وتعود الحياة له، إنه بالداخل معها، أراه من خلف الزجاج، يتابعان عملهما بين المرضى، وفجأةً اشتعلت الحجرة بكل ما فيها، أمسكت النيران بجسديهما ولم أحرك ساكنًا، الجميع من حولي فزعون، أما أنا فكفاني ما رأيت من ملامحه التي شوهتها النار حين ألصق وجهه بالزجاج.

استنجد بي، لكن شيئًا دعاني للتخلي، كما لو كنت أكرهه، كما لو كنت قد أردتها لكليهما.

عاد المكان إلى حقيقته، واختفى كل شيء من أمامي.

كنت بحاجة للتصديق، سكنَت رجفة الروح، وامتلأت بروح تشبه تلك التي امتلكتها قبل الحادث.

عدت أدراجي وكلي رغبة في نهاية سعيدة، تملكتني نشوة تشبه نشوة ارتقاء قمة بدت مستحيلة، نسيت أمر الظل الذي تبعني كالحقيقي، حين استكنت على أريكتي تشكَّل أمامي من جديد.

- نسيتني.

- لم أغلق بابي.

- والآن؟

- أعتزلكم والحياة.

- وماذا بعد هذا الاعتزال؟

- لا شيء. فقط أنتظر الموت في هدوء، أنتظره من دون خوف، فأنا لم أقتله.

- ولماذا لا تحيا إلى أن يأتيك الموت؟

- أحيا حتى يأتيني الموت؟! هل أنت مجنون؟

- مادام الموت واقعًا لا محالة فالجنون هو ألا أنتزع بعضًا من الحياة.

- أنا لم أطلبها، وُجدتُ دون إرادتي.

- صدقني، لو خيَّروك قبلها لاخترت الحياة.

- لم أولد بجنوني.

- بل لم تولد بخبراتك.

- والآن أمتلكها.

- هذا لا يتسق مع عدم محاولتك.

- حاولت، وكرهتها، كرهت وجودي بين من لا يدركون حقيقة الحياة، ومن لا يدركون ماهية الموت.

- لم تحاول كفاية. الأمر يستحق وقتًا أطول بكثير.

- لكني أخاف أن...

- لا شيء يخيف مثل الموت، وأراك تنتظره بصدر رحبٍ مفتوح. إن

كنت صادقًا في رغبتك، فلا ضير إن جاء أثناء الحياة، الانتظار يشبه الموت، لكنه أكثر مللًا.

ذلك العمر القصير الذي عشته بحق وجدت فيه ما يمكن أن تحكيه لظلٍ مثلي، لو لم تمتلك ذلك ما عدت إليك أبدًا.

- تأتيني فقط من أجل حكاياتي؟!

- كما ستفعل أنت إذا ما نضبت حكاياتي.

نحن مجرد حكايات تمشي على الأرض، وأقسى ما يمكن حدوثه، أن تتبخر حكاياتك بعد الموت دون أن تترك ولو ملحًا على الأرض. لا بد من حكاية تتركها وراءك لتُبقيكَ حيًا.

- هل نسيت؟ أنا لا أريد الحياة.

- لذا تكتب حكايتك، لذا أردتَ نهاية تجعل منك بطلًا، أنت ترفض الحياة، لكنك لا ترفض الخلود.

(طعنتني الجملة الأخيرة في صميم قلبي).. تابع الظل:

- لماذا لم تستخدم المال؟ أعرف أنك تمتلكه.

- وماذا سيحقق المال بدون الرغبة في الحياة؟ بدون الأمان؟

- سيمنحك الأمان.

- الأمان ليس أن تعيش بعيدًا عن الخطر، إنه لا يحتاج إلى علامات إرشادية للوصول إلى أي إنسان، الأمان هو أن تجد بشرًا يحيطون بك إذا ما تعرضت للخطر، العالم ليس به ضمانات، وليس به بشرٌ يمنحونك الأمان.

امنحني سببًا واحدًا للبقاء في عالمٍ يفتقد الأمان.

- هناك سبب قوي، لكنه يحتاج منك إلى الخروج للدنيا.

- وما هو؟

- هل تتذكر تلك الأرض التي تمنيتَها؟

- أرض تمنيتها؟!

- البقعة الطاهرة.

- نعم.. نعم... إنها محض خيال.

- بل هي واقعٌ، يمكنني اصطحابك إليها إن أردتَ.

- واقع؟! أنت تكذب.

- وهل تكذب الظلال؟ لن يضيرك يوم إضافي قبل الموت.

- وأين هي؟

- تحتاج وقتًا للوصول إليها، افعلها مرةً واحدةً أخيرة، وسأريك إياها، اخرج من شرنقتك وارضِ رغبتكَ.

- ستفعلها لأجلي؟

- فقط طاوعني.

- سأتبعك حتى آخر الأرض.

- إذًا لنفعلها عند الفجر.

- سأنتظر الفجر.

★★★

فتحتُ مرآب السيارة الذي حرص أبي على امتلاكه قبل رحيله، أرادنا أن نتميز عن الجيران، وأرادني كذلك، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، أمطت عنها غطاءها، تحسستها لأستعيد العلاقة القديمة، فترة طويلة لم أمسّها حتى بدا الحزن جليًا على ملامحها المغبّرة. ركعت السيارة وقد أفرغت ما بعجلاتها من هواء، ربما توسلَت كثيرًا كي لا أنساها، فحتى الجماد يحب أن يشعر بقيمته، ويحزن للإهمال.

أعدت لها روحها، استغرق الأمر أكثر من ساعتين، التفتُّ للظل الذي ينتظر، أعتقد أن الملل لا يصيب الظلال بنفس قدر أصحابها.

ركبنا السيارة، بدت سعيدة عندما استعادت قوتها وقيمتها.

المسافة طويلة وتحتاج إلى تلك القوة، أشبعْتها وقودًا وحملت معي ما ظننت كفايته لرحلة طويلة جدًا.

ساعات طويلة غير محسوبةٍ، ومسافات أطول، ظننت السيارة أنها لن تتوقف خلال الطرق الوعرة، ولم تتوقف بالفعل حتى أذن لنا الظل.

لم أتخيل أن (سيناء) بمثل ذلك الاتساع، فخيالي لا يجيد القياس، وأنا لم أرها من قبل خارج الكتب، كانت وحدها دنيا، وما بها لم يكن يكفي لحياة كاملة، عمومًا كل ما احتجته منها هي قطعة صغيرة من الأرض، تلك البقعة التي حدثني خيالي والظل عنها، البقعة الصافية، النقية.

حين أمرني بالتوقف تذكرت أننا تناسينا التحدث طول الطريق، جلسنا معًا كل ذلك الوقت ولم ينتبه أحدنا للآخر، هل كان يريدها مثلي؟

إنها جاذبية الحلم، والأمل في تحقيقه التي سلبتنا ألسنتنا.

كان جنونًا أن أطاوع ظلًا إلى ذلك الحد، نظرتُ إليه متشككًا: هل وصلنا؟

أجابني ببساطة مقلقةٍ: نعم. أظن ذلك.

كان الأوان قد آن لتستجمع السيارة أنفاسها وتهدأ قليلًا، وآن أوان أن أحقق أمنيتي العظمى، ترجّلنا من السيارة، أشار الظل إلى بقعة قريبة تشذ عن اللوحة الكليّة.

- إنها الأرض التي طلبتها، لم تزهق عليها روح، ولم يمت عليها حيٌّ.

كانت بقعةً صخريةً صلعاء في قلب الرمال، ربما ذلك ما منعَ أي نبات من الحياة عليها، وبالتالي لم يمت بها.

منطقةٌ صخرية صُقلت بعناية شديدة، تشبه الحرير في ملمسها، لا تجرح هواءً، ولا ذرات رملٍ.

لكل درجةٍ من الإيمان مبرراتها المعقولة، وإيماني لحظتها بنقاء تلك البقعة لم يكن مبرَّرًا أبدًا.

شعرت أن الدنيا تضيء فوقها، أو لنقل ركزّت كل ضوئها عليها، كما لو أن السماء استحسنتها من كل اليابسة وحفظتها، تغيَّر الشوف بعيني.

- يا إلهي...

تبدو حقيقية، أشعر بالخير وحده مرَّ من هنا، الرائحة لا تحمل سوى الرحمة والحياة.

خلعتُ نعليَّ، خطوت فوقها بغير قدمين، شعرت بخفة الطير، إحساس الصخر تجاوز أخمص القدمين إلى منبت الشعر، لا أرواح

متألمة، ولا أطياف هائمة، أرض لم تُصَب بلعنة التيه، ولم يعكرها الدم أو الدمع، نشوة تنفخ الأوردة في حنان، ياللراحة والسكينة والسلام!

انتبهت إلى أن الظل لزمَ مكانه إلى جوار السيارة، لم يتقدم لنيل نصيبًا مما حظيت به، ناديته:

- ألا تحب تجربة إحساسي؟

- ليس مسموح لي أن أقترب.

لم أدقق في الإجابة، المهم أنني وُجِدت في المكان الذي أحببت أن أكون فيه.

ألقيت بالجسد فوق الصخر، ذبت فيه، سمَت روحي، علمت أني قد تطهرت من عذابات روحي، من ذنب القتل، اجتاحتني طاقةٌ صلّيت ألا تغادرني أبدًا، كان من الواضح أن تلك البقعة تمتلك طاقةً أحادية، كلها موجبة.

شعرت بذلك يدخلني من مسام عرقي.

ناداني الظل:

- والآن اطلق أمنيتك لأقصى ما تستطيع.

قلت دون تردد ونظري يتعلق بالسماء:

- أريد أن أموت هنا.

- كنت أتوقعها تمامًا، كلكم نفس الشخص، يدفعكم العشق إلى الرضا بتشويه المعشوق عن فراقه.

تريد أن تدنس البقعة الوحيدة التي حلمت وعانيت من أجلها.

هل تعرف؟ لن يأكل الصخر لحمك، سيستحيل إلى طبقٍ تأكل فيه الجوارح من لحمك الميت، وربما انجذبت بطيرانها الضواري فتنهشك، سيمر وقت طويل قبل أن تختفي، وستخلف بعدك ذكرى مذبحة بشعة، ستصير هذه البقعة أسوأ من أي أخرى، فقط لأنك عشقتها بجنون، وجنونك لم يكفها شرورك.

انطفأت رغبتي وقتها دون أسباب واضحة بعد كلمات الظل، لم يشغلني أبدًا أمر ما بعد النهاية، وبقيت الرغبة في الحياة غير موجودة.

على الأقل وقفت على قدميَّ، لم أجد لي ظلًا فوق الصخر، أعلم أنه غادرني منذ فترة، لكن شيئًا دعاني للتأكد، وبرغم تلك القداسة التي اجتاحتني لم أصلِّ، قبَّلت الصخر، وألقيت عليه السلام.

فارقته حين لم أجد في نفسي الشجاعة الكافية لتدنيسه، أو لعدم امتلاكي الصدق الكامل لفعلها.

(فليبقَ الصخر طاهرًا ولتحمل الرمال الموت بعيدًا)..

قلتها قبل الوداع.

ظهرَ الإعياء على محرك السيارة في طريق العودة، لكنها تحاملت على نفسها، أنهت المهمة بسلامٍ كأنها آخر المهمات.

لأيامٍ بعدها تملَّكني إحساس غامر بالهدوء والسكينة، شعرت أن هناك أمل باقٍ، وذلك وحده يستحق العناء.

★★★

الأمر ليس بسيطًا كما يبدو من حكايتي حتى الآن، هناك أمور لا تظهر بقيمتها الحقيقية في المرة الأولى، تظل تنمو وتنمو حتى تصير هي المحرك الرئيسي لكل الأحداث، ذلك هو تأثير الفراشة، فبعض الأحداث لا تكتمل بحكاية واحدة، في بعض الأحيان يبدأ الأمر بواحدة لا تكتمل إلا بأخرى، ولآخرٍ.

هذه هي وجهة النظر الخاصة في التفسير والرؤية، الصورة تكتمل بقدر ما نمتلك من حكايات.

في المرة الأولى التي اصطحبني فيها أبي إلى الخارج، كنت متأكدًا أن محاولتي لمصالحة الدنيا ستبوء بالفشل، طاوعته خوفًا من اتهامي بالتقصير، وخوفًا من غضبته.

يومها وقبل أن ألتقي الشارع، وجدت سكان العمارة يطردون طفلًا من أطفاله، أوسعوه ضربًا لذنب لم يبدُ لي عظيمًا، كأنه الدجال الذي آذيته من قبل، جرى من بينهم وتبعته قطط كثيرة، يبدو أنه يعطف عليها، تساءلت في نفسي:

(من أين جاء بالعطف تجاه أي كائن؟).

قال أحد الساكنين: (قططه ستحمل الأمراض للبيت كله).

قالوا: (لو عدت لقتلناك).

كان واضحًا أنه يتقي البرد فقط بين جدران عارية، احتاج بابًا ولو مفتوحًا يقيه وقططه ماء السماء.

أغلقوا باب المدخل بقفلٍ ولم يعد من جديد.

قلت: لماذا لم يقتلوه من المرة الأولى؟ أليس الموت أرحم له من قسوة البرد؟

يبدو أن مفهوم الرحمة قد تبدَّلَ عند البشر أثناء غيابي، أو على الأقل عند الجيران.

تخيلته يقف وسط الشارع محاطًا بقططه وقد توحشت، يطلقها على أهل الحي فتنتقم له ولنفسها، تخيلتها تبدأ بأبي، ظلّ يصرخ من خلف باب حجرتي، وأمي تحاول أن تهدئه لأجيبها وأخلصه، لم أجبها أبدًا، فقط تمنيت ألا تشبع القطط من لحمه فقط، فهناك من يستحق القتل غير أبي، وذلك يحتاج إلى شهية مفتوحة.

سيموت ذلك الطفل لو لم يسرعوا، لو مُنحَ عمرًا طبيعيًا لسحقت سيارة رأسه في طريق مظلم، البدايات تشير للنهايات، وبدايته مؤلمة جدًا.

أحيانًا يكون منحُ فرصةً ثانية أكثر قسوة من القتل نفسه.

عندها تأكدتُ أن العالم ليس بخير.

لم أكن مستعدًا لتلك البداية مطلقًا، ولم يمنعهم أبي، ربما ذلك هو السبب في تخيُّلي للقطط تنهشه، أحسست أنه بصمته قاتلٌ.

آمنت من قبل أن الله خلق الخلق ليعين بعضهم بعضًا على الحياة، اعتقدت أن ذلك هو السبب الذي جعل أبي مصرًا على احتفاظي بها، وثبت خطأ معتقدي حين رأيت الطفل لا يكاد ينجو من بينهم.

بصراحةٍ نظرتي للطفل لا تقل تأثيرًا في حياتي عن ظهور (كرم) فيها.

لولاه ما اتجهت إلى تخصص أمراض الصدر أبدًا، ربما كانت حيـاتي

قد تغيرت لو لم أعرفه، فمنذ خطواتي الأولى في حرم الجامعة تمنيت دراسة كل شيء عن العين، طريقة عملها، تكوينها، تشريحها، كنت سأبحث عن تلك العلاقة التي تربط بينها وبين الروح، وكيف يمكن النفاذ من خلالها إلى الأعماق، كيف يمتلك الإنسان عينًا ولا يرى؟

تأملت عيني لسنوات طويلة أمام المرآة، مع هذا رفضت قراءة عيون الآخرين، إنه الخجل، أو الخوف منها، مرة وحيدة فعلتها مع الطفل الذي فضح سر الخطاب أمام أستاذي، رأيت في عينيه شرًا، ولست أدري ما الذي رآه في عيني وقتها جعله يتجنبني، ويغير مكان جلسته.

وأنا صغير تعلمت أن الكذب والصدق يظهران في العيون، القدرة على مواجهة عين أخرى يفصل بينهما، وافتقدت القدرة على مواجهة أي عين أخرى.

قلت: (عندما أغوص في أرواح الآخرين سأعرف أسرارهم).

خشيت على أسراري أن تنفضح عند مواجهة مرضاي فيجتنبوني.

العمر قصير ولا أريد أن أملأه من عند غيري، لذا قررت دراسة أي شيء إلا تلك الثقوب الفاضحة.

اختارلي صديقي الوحيد، ورضيت دون تفكير، لأبدأ طريقًا اعتقدته آمنًا، ونسيت أن الأسرار محلها الصدور.

لو لم أقابل (كرم) لتخلصت من جل معاناتي، ولما احتجت لكتابة نص بكل هذا القدر من القتامة.

★★★

تحقق تقريبًا كل ما بقى لي من أمنيات بسيطة في يومين اثنين، أفلتُّ من حادثة قتلٍ ثابتة، ووطأتُ أرض الخيال بقدميَّ، طاقتي الإيجابية لم تكن قد نفدت بعد، لا ضير من جولة صغيرة في الدنيا قبل النهاية، أشعر بحاجةٍ ملحّةٍ للخروج إلى الشارع، لم يعتريني مثل ذلك الإحساس من قبل، ربما هو الوداع الأخير، وداعٌ بلا خوف.

فتحتُ النافذة لأستكشف الوجود، كان أسوأ من أي يومٍ مضى، أمطرت السماء فوق مجموعة من الشباب يجرجرون صبيًا ويجرون به، لم يبدُ على وجه أيٍ منهم أمارة للأسف، أمطرت عيناي قليلًا من الدمع معها، كان الوقت ليلًا والبرد يعض أطراف الجميع، وهو أنسب الأوقات للخروج دون فقداني لإحساس العزلة.

لفحني البرد مانحًا إياي نوبةً من السعال المستمر، صدري لا يعمل بشكل جيد منذ فترةٍ، رغم ذلك استمطرت السماء بشدة، طاوعتني وألقت ما بها دفعةً واحدةً، وخلا الكون لي.

شققت طريقي في شرود، غابت الأشياء، حتى القطط تجمد مواؤها وانصاعت للصمت، وربما رحلت وراء القتيل، أطلتُ الطريق، غيَّرت مساراتي أكثر من مرة، استمتعت باختباء الناس خلف الجدر، كنت منفردًا بالوجود حتى سمعت صوت نهنهات، سرت في جسدي دهشةٌ بالغة، اعتقدت لوهلة أنها تنفذ من شقوق المنازل، أو مسام الحوائط، لكن الصوت بدا واضحًا، توقفت عند عمود إنارةٍ فقد قيمته في غياب السائرين ليلًا، كان ظلًّا منعكسًا على الجدار، يدفن رأسه بين ركبتيه ويبكي بحرارة لا تتسق وليل الشتاء، بحثت في كل مكان عن صاحبه فلم أجد له أثرًا، بدا لي أن أحدهم قد أضاع ظله، تساءلت:

(هل تمتلك الظلال مشاعرًا؟)..

لم أعتقد ذلك من قبل، ربما انفصل على وضعية البكاء.

تأملته جيدًا، لم أرتب وقتها للقاء أحد الظلال بالشارع، ومن دون صاحبه، نعم هم من يختارون وليس أنا، فكرت في كيفية بدء الحديث مع ظلٍ باكٍ، أزاح هو الحرج عني وبدأ حديثه بغير مقدمات: مات صاحبي.

انهارت ثوابتٌ كثيرة كنت قد رسختها في نفسي عن عالم الظلال بهاتين الكلمتين.

- كيف؟! مات ولم تتبعه؟!

- مات ولم أتبعه، لست أعرف مكانه حتى.

- وكيف عرفت إذًا بأمر موته؟

- شعرتُ بذلك.

- وهل تشعر الظلال؟

- فقط حين يموت صاحبها، نحن نتبع أصحابنا إلى الموت ولا نموت معهم، نحن شهود على حياتهم، وبدوننا لن يجيب واحدٌ من الأموات على السؤال الأزلي.. "ماذا فعلت في حياتك؟"

- هل تعني أنكم... أنكم...

- نعم نحن من ينطق في النهاية، ثم لا نُنَعَّم أو نُعَذَّبُ، لا أحد يمتلك ظله في كلا الحالين.

لم أتخيل أبدًا أن للظلال تلك الأهمية، اعتبرتها دائمًا مجرد نتوءات مظلمة لأجسادنا، أعلم أنه لا شيء مخلوقٌ عبثًا، وأن لكل موجود غاية، لكن أن تتركز قيمة الحياة في ما لا يبدو مهمًا كان كشفًا جديدًا بالنسبة لي، قد يغير مسار حياتي ومسار الآخرين إن بحثُ به، ذلك ينسف كل معتقداتي من أساسها، ينبغي على الجميع إعادة تقييم الأشياء.

أمرٌ بتلك الأهمية سأكون آثمًا إن كتمته، هل أصيح في وسط الشارع بجهر صوتي أن اخشوا ظلالكم فإنهم شهود؟

إنه خيار صعب بين الجنون والمعصية.

تابع الظل حديثه وهو على وضعيته لم يغيِّرها:

- عاش حياةً رتيبةً، يئست أن تحوي جديدًا، البيت – العمل، البيت – العمل، ما يقرب من العشرين سنة ولا شيء يتغير.

حفظت طريقه والجدر التي أنعكس عليها، منذ عامٍ واحدٍ قررت أن أفعلها، أن أتمرد، التفتُّ إلى ذاتي وانفصلت عنه على جدار البيت، جُلتُ في الطرقات، اتسعت الدنيا من حولي، أحببتها أكثر من دنياه القاسية، رأيت ما رأيت وقررت العودة لأخبره أن الدنيا بها ما يستحق الخروج على المألوف، يبدو أن الملل أصابه في نفس اللحظة التي مللت أنا أيضًا فيها، لم أجده في سريره، ولا في أيٍ من الأماكن الثابتة لديه، بحثوا عنه كثيرًا ولم يجدوه، بحثت في كل مكانٍ عرّفه لي، لقد مات، أنا أدرك ذلك تمامًا، تركَ كل متعلقاته من تحقيق شخصيته، إلى نقوده القليلة، من وقتها وأنا أبكيه على جداره، من وقتها لا أستطيع السيرولا التوقف عن البكاء، إنني حتى لا أقدر على رفع رأسي لأنظر في عينيك.

أثارت دموع الظل شجوني، كدت أعرض عليه اتباعي لولا تذكُّري لكلماته الأخيرة، إنه لا يستطيع السير، وأنا لا أقدر على البقاء.

- هل يعني هذا أنك ستبقى على حالتك للنهاية؟

- لا يهمني البقاء هكذا، كل ما يخيفني الإجابة على سؤال وحيد: (ماذا فعل صاحبك عند الموت؟).. صدقني لو يفلح الكذب لكذبت، لكن بماذا سيفيد كذبي؟ حتى وإن فعلتها سأكون أول ظلٍ يصلى بنار الجحيم.

- أنت لا تشعر، أليس كذلك؟

- سأمتلك إحساسًا كاملًا عندها، أتوقع ذلك، بل وأومن به.

حاولت مواساته:

- ستطلع الشمس وتختفي.

- أن أختفي، ذلك لا ينفي وجودي، لسنةٍ كاملةٍ تطلع الشمس ولم أزل على حالتي، مصلوبًا على جدار من فقدني، أو من فقدته.

إنه قدري المشؤوم أن أختار اللحظة الوحيدة الغير مناسبة من بين كل لحظات الحياة.

لا تشغل بالك بأمر ظلٍ، فنهايتي محتومة، أما أنت فانتبه، أغرقتكَ السماء، وقد تؤذيك.

لملمت ما تبقى في جوفي من حرارة، نفثتها في كفيّ، كدت أفقد إحساسي بأصابعي، بعض الحرارة أعادت لي إحساسي بالكون من حولي، تحسست شعري الغارق، وملابسي المرتوية تمامًا حدَّ المرض، تذكرت السعال الذي يصاحبني.

خشيت أن يكون أمر الأذى حقيقيًا، هممت بالسير قائلًا: سأعود إليك مرة أخرى... هذا إن عدتُ للخروج.

لحظتها شعرت بقسوة البرد، أسرعت الخطى للمنزل وأنا على يقين تام أن تلك المرة هي الأخيرة.

★★★

ربما كانت رغبتي في التطهُّر هي ما تدفعني للاستمرار في هذياني وجنوني، لست أدري لماذا يتوجب علينا مطاوعة الكاتب والخضوع له؟

الجميع يحارب لأجل تحقيق مشيئته بمقدار، ويتخلى بمقدار، العجيب أنهم يتخلون رغبةً في الحياة، أو خوفًا من الموت، الأعجب أن التحقُّق لن يعطل النهاية، هذا ليس تبريرًا للتخلي ولا انتقاصًا من الوصول، لا بد أن هناك شيئًا آخر أكثر أهمية من هذه الحياة، من الموت نفسه، شيئًا خارج إطار العقل المحدود.

ويبدو أن خضوعي هو سبب سخافة النص حتى الآن، محاولات التجميل القميئة، مطاوعة الواقع، والاختفاء وراء قصةٍ لها نهاية سعيدة، كلها أمور لا تصلح لخلق نصٍ قوي.

للأمانة أنا لست هذا الطيب الذي تتابعون كلماته، في بعض الأحيان أشعر أن شيطانًا يسكن أعماقي، خصوصًا في الحلم، لست جيدًا بما يكفي لتفسير أحلامي، ولم أهتم أبدًا، فهي تفسر نفسها دائمًا.

في الآونة الأخيرة ينتابني حلمٌ وحيد، تكرر أكثر من مرة وبنفس الكيفية.

دائمًا ما أجد رغبةً عارمةً في القتل، عادةً أكون مقبضًا على سكيني، أسير إلى نفس المنزل في الظلام المطبق، أتوقف أمامه مباشرةً، أتلفَّت حولي في خوف بالغٍ.

يكون الشارع فارغًا من كل شيء حتى من الظلال.

السماء معتمةٌ كأن الله قد أغلق عينيه مانحًا إيايَ العزلة الكافية.

ليس معقولًا أن تكون عيناه مفتوحتان بينما رغبة الدم تلتهب بداخلي، الهواء البارد يزكّي الرغبة.

في تلك الأثناء ينسلُّ صوت ضحكات دافئة من النافذة القريبة.

ضحكاتٌ خشنة تضاجع أخرى لامرأةٍ رقيقة، لا أعرف عنهما شيئًا، ولم أرد منهما أي شيء سابقًا.

رغبتي في القتل تفوق جهلي بهما مراتٍ عديدةٍ.

كثيرًا ما أتخيل نصل سكيني يغوص في لحم أحدهم، لن تعيق العظام طريقه إلى القلب، فالسكين أدرى الأشياء بالقتل، الميزة في الطعن هي تلك الفترة القصيرة ما بين القتل وخروج الروح، محاولات التشبث بها، تلك الغريزة التي لا تتوقف إلا مع آخر قطرة دم.

ذلك يمنح القاتل نشوةً لا يصفها انتهاء الجسد، ولا استكانة الروح فيه.

ستبقى صورة العين تنزف دمعها لا إراديًا لفترة طويلة جدًا، الصرخة الأولى، الاسم الذي سيهتف به لحظة الألم.

محاولة رتق الثقب باليدين يمنح القاتل ارتعادةً روحية غير ظاهرة، تتبقى فقط ركلة خفيفة بالقدم لتأكيد الفعلة، ثم... ثم اكتمال التطهُّر.

يعجبني استخدامي للسكين جدًا، السكين لا يبلى سريعًا، وحين يأكله الصدأ يصير أشد فتكًا، يصير مسمومًا، فلماذا ينظف الجنود نصالهم قبل الحرب؟

أكيدٌ أنهم لا يخشون على قتلاهم العدوى، بل هو التلذذ بإظهار الدنس والدم فوق النصل اللامع.

لم أتأكد أبدًا أن الذي سأقتله في الحلم يستحقها، هذا هو الجزء الأكثر إمتاعًا في العملية كلها، لا شيء متوقع، لا ملامح مسبقة، ولا حتى ردود أفعالٍ محسوبة.

لحظات تنقضي في استكشاف مدخل مناسب للمنزل، ثم تنفتح أبواب الجحيم، نارٌ تأكل كل شيء، المنزل يحترق بمن فيه، أسمع صوت الصراخ، يطربني وأحبه.

تحاول هي النجاة عبر زجاج النافذة، ويحارب هو النار الحامية، لا الزجاج يستجيب ولا النار ترتدع، أتذكر فجأةً أن غايتي تختلف تمامًا، لم أرد هذا حين بدأ الأمر كله.

أقتحم النار لأجد المرأة قد تفحمَت عن آخرها، صارت أشبه برماد سيجارةٍ تُركت وحيدةً بعد إشعالها، بينما الرجل سوّته النار ولم تلتهمه عن آخره، جوعها لم يكن بالغًا، فأبقت به بعض حياةٍ.

أسحبه عبر النار إلى الشارع، أشعر بالحياة كلما صرخَ، فالروح ما زالت تملأ جزءًا كافيًا منه.

أتركه على التراب، ينظر إليَّ نظرةً ملؤها الشكر والعرفان، أُمسك رأسه برفقٍ بعد أن أجثو على ركبتي، تمتزج نظراتنا، يبتسم قدر المستطاع

كمنحة إنقاذ. أزيد من ضغطي على رأسه، يحاول التملص يائسًا، أصدم الصخر برأسه في عنف، تبرق عيناه متألمةً، تذرفان دمعًا متوسلًا، أزيد من ضربات رأسه فينفجر الدم من وجهه حتى أشعر به يغسلني، يضرب الأرض بقـــدميه، تتجمد في عينيه نظرةً تـؤذيني كلما تذكرتها، لكـن رغبة القتل حاضرةٌ ومسيطرةٌ تمامًا.

أستمر متجاهلًا عينيه، أزيد الضربات قسوةً حتى تتهشم الرأس تمامًا، يسكن الجسد، وتنطحن الملامح تحت ستارٍ من الدم الكثيف.

في النهاية أمنح سكيني نصيبًا من قلبه، فله حق الرفقة في الحلم، وكان اختياري الأول منذ البداية لولا مستجدات الأمور.

أعلم بشاعة ما أحكيه، ستقولون أي مجنونٍ ذلك الذي يغامر بروحه وسط الجحيم ليمنح واحدًا لا يعرفه ميتةً بشعةً كتلك؟

نعم. أنا هو المجنون، لو تركته يحترق لمات من دون قتل، ولما استراح السكين. كنت لأصحو منتشيًا في كل مرةٍ فعلتها، لولا ذلك الطفل الذي أجده يتأملني في كل نهاية حلم.

★★★

أشعر بنفس إحساس صرصور (كافكا).. أبسط الخطوات تحتاج إلى جهد معجز، انسحاب العالم من حولي، أو انسحابي منه، ذلك العجز القاتل الذي يشبه انقلابًا على الظهر.

صار الطعام مجرد أداة لتأجيل الموت، لا طعم، لا رائحة، ولا اشتهاء.

الخيالات لا تأكل، لذا كرهت جلسة الطعام، أشعر أنني أفعلها رغمًا عني، وأنا أكره الجبر.

خشيت كثيرًا أن يمل البقال فأضطر للخروج، لكنه المال لم يفقد سحره بعد.

أعلم أنني ميت لا محالة، ولا يليق بي الموت جوعًا، وقد ترك أبي وراءه كل هذا القدر من المال، سيأتي الموت بطريقة أكثر أناقة، بالطريقة التي تناسبني.

يبدو أن أغلب شهواتي قد ماتت، غرائزي لم تعد تعمل بشكلها الطبيعي، هذا يحولني إلى... إلى مجرد ظل.

هل تعتبرني الظلال واحدًا منهم حقًا؟

هل هذا هو السبب الوجيه لانفتاح عالمهم عليَّ؟

إنني لا أملك من صفاتهم غير الشحوب، وإهمال العالم.

عجيب هو الإحساس الذي يعتريني الآن، أتقنه فقط إذا ما تعلق الأمر بوجود ظلٍ.

أحدهم موجود، لكني لا ألمح شيئًا على الجدر، الظلال لا تحتجب إذا ما وجدت الفرصة للظهور، أشعر بخوفه، لا بد أنه موجود في أحد الزوايا الغير منظورة، ليست زوايا عقلي بالتأكيد.

لم يكن الأمر صعبًا أن أجده خلف أريكتي، إنه صغيرٌ يرتعد، لم يبلغ الخامسة بالتأكيد، فهو لا يحتل من الجدار سوى بقعة صغيرة جدًا،

يذكرني بذلك الذي يراقبني في الحلم، يرتعد كظلِ شمعة قاربت على الفناء.

قسوة العالم لم تعد تدهشني، لأول مرة أشعر بالحاجة لاحتواء أي شيء بين ذراعيّ غير حبيبتي.

وددت لو خلصته من الجدار وآويته في حضني.

صغيرٌ، خائفٌ، ياللمأساة!

أتوخى الحذر عند اقترابي منه، كي لا أضاعف خوفه، أجثو أمامه ليرى وجهي

- لماذا خوفك يا صغير؟

يحافظ على ارتعادته وهو يجيب:

- من الحياة.

لم يعد بقلبي مكان لحزنٍ إضافي، لكن قلبي يكاد ينفجر، يا إلهي! ماذا رأى من الحياة ليخافها بهذه الدرجة، وفي هذه السن المبكرة؟

- وما الذي يخيفك فيها؟

- أخاف أن أواجهها من دون أبي.

- وأين هو؟

- واحدٌ قتله، طعنه بسكين في صدره.

- كان لصًا أم أنه شجار؟

- لا أعرف، كل ما أعرفه أن أحدهم قتله وهرب.

- وأين أمك؟

- هي بالبيت تبكيه منذ الحادثة، لم تتوقف للحظةٍ، لدرجة أنها أهملتني ولم تشغل مكانه، لم تلاعبني ولو لمرةٍ، أبي فقط من كان يفعلها.

- ستلاعبك بعد أن تنسى.

- لا شيء يعوض الأب، لا شيء يشبه ضمته، حلواه، أو لعبه.

- لذا تبكي؟

- أنا لا أريد اللعب أو الحلوى، لا أريد أن تكف أمي عن البكاء، كل ما أريده سعادة أبي، وأكثر ما أخافه عليه هو الحزن، عندما يفيق من موته لن يجدني، سيحزن كثيرًا، إن هذا مخيف أكثر من مواجهة الحياة بدونه.

- تخشى على والدك الحزن بعد موته؟! وهل نحزن بعد موتنا؟

- إذا رأيت وجهه وهو يتأملني ستعلم أن الموت لن يمنعه من الحزن لفراقي، فراقي سيميته بعد موته مرات عديدة.

- من أين أتيت بهذه النظرة للموت؟

- أخبرني أبي أن الموت حياة من بعد حياة.

تأملت عينيه يوم وُلدتُ، كان يدمن ملامحي، وظل إدمانه يزيد عامًا بعد عام، ولا أظنه يشفى من إدمانه بعد الموت، إنه حزين لدرجة أنه يبكي في أحلامي.

لم أتوقع أبدًا أن يمتلك صغيرٌ مثل هذا المنطق، لا أعتقد أن الموتى يتوقفون عن الحزن بالفعل، المشاعر لا تموت مع الأجساد، لا بد أنه حزين لغياب صورة ولده عن عينيه.

- تقول أنه يزور أحلامك، إنه أكثر حرية الآن، طيفه حرٌ طليق.

- لكن ماذا لو أراد رؤيتي وقت لعبي؟ لم يكن بيني وبينه أبواب، والآن صار باب الحلم موجودًا، الرؤية لا تغني عن العناق، أحبَ أمي أيضًا، فهل يكفيه رؤيتها فقط؟

أعلم أنه يتألم لفقدي أكثر من أي شيء، وأنا لا أريد له الألم.

سيدي أرجوك... هل يمكنك قتلي لأذهب عند والدي فيخمد الألم؟

لا أعرف، هل يمتلك والدي نفس الحزن الآن؟

أعلم أنه لم يكن أبًا بالشكل الذي يرضيني تمامًا، لكني أتذكره عندما كان يتحسس وجهي بكفيه كفنانٍ ينحت تمثاله، قد تكون بعض ملامحي من نحت أصابعه، شعري المنساب أحد إبداعاته، رأيت صورتي صغيرًا، وكان الشعر مجعدًا، اعتاد المسح على رأسي حتى أصبح على ما هو عليه الآن.

الخالق يتألم لمخلوقه، والصانع يحزن لصنعته، إذا ما كان الفراق محتومًا.

- سيدي لم تجبني، هل تقتلني لأذهب عند أبي؟

- وهل تضمن اللقاء؟

- سيمنحونني نفس القبر، والأرواح تتلاقي، أنت تعرف هذا بالتأكيد.

- ربما سيحزن أكثر إن فقدت حياتك.

- قربي منه أجمل من الحياة.

- وماذا عن أمك؟

- أمي في حجرتها تستحضر طيفه وتبكي، هي حزينة لكن حزنها ليس كافيًا للموت، أريد أن أموت لأمنحها حزنًا يقتلها فنجتمع ثلاثتنا مرةً أخرى، ويتوقف الحزن للأبد.

(الموت من أجل الحياة، هذا ما أعتقد فيه منذ الصغر).

- هل تعرف؟ إنني أحب الموت أكثر منك.

- ومن قال أنني أحبه؟ أنا فقط أكره حزن أبي.

- الموت لا يبدو كما تراه، الموت ليس اختيارًا، إنه لا يأتي من يسعى إليه، لا أحد يريد الموت مثلي وما زلت منتظرًا.

- لا أحد يتغنى بعشقه للموت، إن أردته فعليك فقط أن تختار ما يناسبك، فقط امسك سكينك، اطعنني ولن أتألم، سأضحك حتى النهاية، لحظتها ستجد الأمر سهلًا، إن كنت صادقًا في رغبتك لن تشعر بالألم حين يفرغ قلبك كل ما فيه، افعلها بي وسأجعلك تحب الموت أكثر.

ظل هذا الشقي يمتلك رغبةً حقيقيةً في الموت، إنه يزيد من رغبتي فيه بدرجة لم يقدر عليها غيره، أنا الآن في أضعف حالاتي، وربما أقوى رغبة لي في الرحيل، المطبخ يضيء من تلقاء نفسه، يبعث إشاراته نحوي، السكين ليس بعيدًا، نعم سيكون الأمر سهلًا، أسهل من كل هذا الانتظار

الأليم، خطواتي للمطبخ لا تشبه غيرها في أي اتجاه، خطواتٌ اسفنجيةٌ عرجاء، السكين تنزف مسبقًا، لم يغير الظل وقفته حتى أمام الموت، إنه يريده أكثر مني، لديه شجاعة لا أمتلكها.

- هل هذا حقًا ما تريد؟

- أريده أكثر من حلوى أبي.

- وهل تعتقد أنني سأفعلها من بعدك؟

- موتك ليس عقدًا بيننا، موتي هو كل ما يعنيني.

- قلت أنني سأحب الموت!

- إذًا لنجعله عقدًا، كل ما أستطيعه هو أن أضحك حتى تحبه.

- ستجد الفرصة للضحك عند المواجهة؟

- لن أضحك للألم، بل سأضحك لما بعده.

- ما بعده؟!

لم ترتكب من الخطايا ما يمنعك من الضحك، أما أنا... أنا...

- من يعشق الموت لن يخشى التالي.

- وأنا أخشاه.

ليست من صفاتي المراوغة، ويبدو أنه فهمها كذلك.

تضخم الظل حتى ملأ الحائط تمامًا، رغم ذلك حافظ على نبرته الطفولية وهو يصرخ في وجهي

- لست صادقًا في رغبتك، أنت تتحايل فقط على الحياة، أخطأ من دلني على طريقك، احتفظ بحياتك البائسة أيها المخادع اللعين، الموت لا جدال معه، سأبحث عنه في مكان أكثر صدقًا، مكانٍ ليس به أشباهك.

لملم سواده من فوق الجدار وانسحبَ، لم أقدر على منعه، خرس الكلام في فمي، أنا لا أكذب حين أعلن عن رغبتي في الموت، بالفعل أريده، لكني أريده بالشكل الذي يليق بي، ثم أني لم أكمل النص حتى الآن، ولا أحب أن أخلف ورائي نصًا مشوهًا.

أشعر بالحاجة للنوم، فكلاهما راحة من عناء الحياة.

★★★

(٦)

حكايات متبادلة

الأمر يحتاج إلى شيء من التوضيح، ستتنقَّل الرواية بين (الكاتب).. وبين بطلي (خالد) في الأجزاء القادمة، سيراه البعض تدخلًا سخيفًا في الحكاية، لكن هناك أشياء لا يمكن الحكم عليها إلا بعد تمامها.

رغم أنني اخترت كل شيء بمحض إرادتي، وبدقة تقترب من تلك التي يحتاجها الخلق مع فرق العالمين، إلا أن النص يعاندني، يتجاوز حدود الخيال التي رسمتها من قبل، يمزجني أنا الكاتب ببطلي، ذلك الألم الشديد، وتلك المعاناة لا تريد التوقف مع كل جملة جديدة.

صار الخيال يطارد واقعي، أخشى أن يكون الله قد منحني طفلًا ليعذبني به، فالعالم ليس على ما يرام، والحياة مغامرة غير محسوبة، الخوف مخلوق شرير، صحيحٌ أنه وُلد مع الحياة، لكنه صار شابًا يافعًا، الخوف في أقوى أطواره الآن والحياة في أضعفها، ولكم أن تتخيلوا.

حين وقعت عليه عيناي للمرة الأولى، تخيلته قطرة مطر سقطت من السماء في محيط الدنيا، لن تقدر أبدًا على تحليته، ولا الاحتفاظ بعذوبتها.

كنت قد دعوت الله صادقًا لسنوات أن يقبضني إليه راكعًا، أطلت الركوع والخشوع والخضوع، ظل دعائي معلقًا بين السماء والأرض، بعد أن رزقت بطفلٍ راجعت نفسي، بت أخشى أن يستجيب الله دعائي فانقطعت عن الصلاة، مع كل صوت أذان أحتويه في أضلعي وأبكي، لعل السماء تسقط الدعاء فأستبدله بالخلود.

يبدو أن حظ (خالد) أفضل مني، على الأقل ستنتهي قصته تحت الأرض، أو بين دفتي كتاب، لن يترك وراءه ما يؤلمه بعد الرحيل، أما الذي يملك ابنًا وقلبًا فهيهات أن تنتهي قصته.

هناك أشياء لا تموت بالموت، أو لنقل أنها لا تحتاج الحياة لتحيا، أشياءٌ فيها سر التكوين، والبقاء.

ذلك الصغير الذي مُنِحته دون طلبٍ أو رجاء، صارت حياته هي كل مطلبي ورجائي، عندما تأملت قطعة اللحم الرقيقة أول الأمر، تساءلت (كيف سيقاوم؟).

أيام وأسابيع، شهور وسنين، وجدتني لا إراديًا أتحمل عنه المقاومة، وهمَّ البقاء.

لكن إلى متى؟

إنني ضعيفٌ في مواجهة عالم بغيض، وهو في عيني أضعف الموجودات وأقلها حيلة.

سيكون عليه ممارسة هذه التجربة البغيضة من البداية وحتى النهاية، سيسلك الطريق الموحش المعد مسبقًا.

سيضرب رفاقه ويضربونه، سيبكي ويعشق ويتألم، أكيدٌ أنه سيضحك من قلبه، لكن ليس كل الضحك سعادةً، أخشى أن يمر بكل ما قد مررت به، حين يدرك أنه امتدادٌ لي سيكرهني.

من هنا نشأ الخـــوف ولم يذهب، خــوف الفــراق، تحمله لأشيائه بنفسه، وفي غير وجودي.

في سنـــواته الأولى كــان ينام بداخلي، في صــدري وبين ذراعيّ، أحببت معاناة النوم إلى جواره، وأحببت شكل النوم بين جفنيه، كانت مرتي الأولى التي أحببت فيها معاناتي.

هناك جزء في القلب يستحق الدرسَ والبحث، جزءٌ يشبه الممحاة تمامًا، يمحو سخافات البداية، فلا يتبقى سوى رغبة حقيقية في استعادتها من جديد، بوجه جديد، ومعاناة جديدة، ذلك الجزء لا بد من تنميته ليمتد إلى غير الأبناء، غير الأطفال، يمتد إلى الخوف السائد، فتحل السكينة.

فعلتُ معه وله أشياء لم أتخيل أن أفعلها، تمنيت لو احتفظ بها في ذاكرته، عندما رأتني أمي ابتسمت قائلةً: تمارس نفس أفعال أبيك معك.

عندها تأكدت أن ولدي لن يتذكر أيًا مما فعلت، فقد نسيت.

أتقنت قصص الأطفال لأجل نومه، حين أشار إلى سقف الغرفة بخوف لم أستوعب الأمر سريعًا، ماذا قد يخيف في سقف الحجرة؟

علمت بعد مرات قليلة أنها الظلال المنعكسة عليه، وأنا لا أحب النوم في الظلام التام.

أردت أن أزيل إحساسه بالخوف مما لا يخيف، فالموجود بالخارج يكفي ويفيض، حركت الظلال أمامه وأنطقتها، حركها معي، وبدأ خوفه يتبدد شيئًا فشيئا.

صارت تكلمنا وتحكي لنا الحكايات المضحكة، صاحبناها، وفي أحد الأيام عدت من عملي لأجده منزويًا عند أحد الأركان، يختلي بظلِه ويلاعبه، يكلمه حتى يكاد الظل ينطق، خفت عليه الجنون، فأعدت إليه خوفه منها، الخوف أفضل من الجنون بكثير.

بعدها أجبرت نفسي على النوم في ظلامٍ محيط، واعتاده معي.

ربما لم يلعب (خالد) مع والده لعبة الظلال صغيرًا، فقد استهوته مؤخرًا، أو أن والده لم يخوِّفه منها قبل أن يمنحه استقلاله في حجرة منفصلة.

ما أعرفه يقينًا أن (خالد) لم يحب أباه كما ينبغي، وكذا أمه أيضًا.

لا أهتم بالأسباب قدر اهتمامي بالحقائق، فـ(خالد) لم يكن يشعر بوجوده إلا في عزلته الغريبة.

ردة فعله ليلة موت أبيه كانت غير عادية.

صرخ والده، قال أن أمعاءه تتمزق، سمعَ (خالد) صرخاته الممزقة، نشبت أمه أظفارها في لحم الباب، نهشته علَّه ينفتح ويُظهره، أرادت إنقاذ زوجها بأية طريقة

- أبوك يموت يا (خالد).. أبوك يموت.

كان صوتها شديد الوضوح، رغم ذلك لم يفتح لها، اكتفى بصمِّ أذنيه، وغلق العيون، الموت دائمًا أسرع من سيارة الإسعاف، أسرع من أي سيارة.

ربما كان موقفه هو الذي قتلها، رغم أنها عاشت قرابة السنة من بعد أبيه، سنة لم تلتقِ فيها الألسن، شعر بحرية العزلة، سمعَ صوت نهنهاتها تسري تجاهه في جوف الليل كثيرًا، تنسل من مسام الجدران، كانت تقصد أن تصله، وقصدَ هو ألا يستجيب.

تخلص من الشخص الوحيد الذي يمكنه هتك ستار عزلته بموت

أبيه، ولم يسمح بذلك بعدها أبدًا.

عندما حطَّ الموت على جسد أمه كتمت آلامها، وراحت في صمت لتفسح له المكان.

دمعات قليلة تلك التي أنفقها في المرتين، فعلها بدرجة أكبر مع والدته، إلا أن دمعاته لم تكن تكفي مطلقًا لوداع أم حقيقيةٍ.

كل ما تغير بعد الفراق أن عزلته اتسعت قليلًا لتشمل باقي الشقة التي فقدت روحها.

أردتُ أن أعرف الكثير عن علاقة (خالد) بأبيه لأجعل الأمر آمنًا مع ولدي، حتى ولو كلفني ذلك إعادته للظلال والجنون، لكني لا أمتلك من قصته غير الذي قلته.

★★★

لا يعرف ماهية الموت إلا الذي جرَّبه، وأنا لم أُجرِّب من قبل، ولم يجربه الكاتب حتى وإن ادعى معرفته به .

لم يزرني أبي أو أمي في الحلم أبدًا، يبدو أنهما غاضبان، ولهما كل الحق في ذلك، للأمانة كنت أنا من أغلقَ باب الحلم في وجهيهما، ليس خجلًا ولا كراهيةً، فأنا لم أتغير منذ رحلا، لكني لا أحب استيقاظ الموتى من الراحة الأبدية.

تركَ لي أبي مالًا وفيرًا، كلفني جمعَهُ الوِحدة في الطفولة، والعزلة عند البلوغ.

لم يعلمني كيف أصنع الظلال، ولا كيف أُنطقها، وفعلتها دون الحاجة إليه، إن ذلك العالم بدعتي الخالصة.

أردت أن أثبت له أمرين، الأول أنني لست انعكاسًا له، والثاني أنني أستطيع الحياة بدونه، وبشكل أفضل.

أنا الآن حي، لكن... ألا أشبهه حقًا؟

عمومًا لم أنشغل بمتابعة تطورات ملامحي منذ فترة، أنتم تعلمون قدر خوفي واعتزالي للمرايا.

أعرف أن الموت حياة أخرى، أكيدٌ أنها أجمل، والجميل فيها هو التخلص من الجسد.

سيكون جيدًا لو أننا نعود أرواحًا، لا نشغل فراغات، فيختفي الزحام، وهوس المساحات.

أحدهم زار حلمي لمرةٍ واحدةٍ، كنت قد رأيته راقدًا في جانب الطريق يتسول . أو أنني اعتقدت ذلك من مظهره البائس .

لا أعرف عنه شيئًا ولا حتى اسمه، تجاهلت نظرته المتوسلة، ولم أستطع تجاهل غياب قدميه، البعض يؤذي نفسه ليحصل على مساعدات الغير، ولست أعتقد أنه هو من فعلها بنفسه.

في الحقيقة كان يشبه أحلامي الكسيحة التي دائمًا ما تضل الطريق للتحقق.

رغم أنها المرة الأولى فإنه استطاع معرفة طريق حلمي دون دليل، عندما دخلَ لم يمد يده طالبًا النقود، بل ابتسم في وجهي ومنحني وردةً حمراء فاقع لونها، لدرجةٍ جعلتني أشعر أنها الشيء الوحيد الملون في كل الأحلام.

لم أكن بحاجةٍ لقدرٍ كبير من الذكاء كي أُدرك أن حياته الأخرى أجمل بكثير.

هذا ما يفعله الأغنياء، أحيانًا يكون قتل الفقراء بديلًا مثاليًا لتحقيق مطالبهم، وتلبية حاجاتهم.

لا أعرف لماذا وقع عليَّ اختياره بالذات؟ لكني دعوت الله في سري وقت رأيته أن يقبضه، فيُرحه من شقاء الحياة.

هل كانت دعوتي هي سبيله للموت؟ هل نقل الله له دعوتي فأحسَ بالجميل؟

الخير والشر كلاهما واحد مع اختلاف المواقف.

عرفت بعدها أن عطيةَ الميت شيء عظيم، وليس أعظم من الموت

★★★

(٧)
أكياس لجمع الفتات

هناك شيء لا أفهمه في (خالد).. أعلم أنه صِنعتي وخلقي، لكنني لا أحمل كل ذلك القدر من العدائية للدنيا، أستطيع التعايش مع الجنون العبثي الذي يجتاح عالمنا، يمكنني التكيُّف مع مفردات الحياة وإن كانت في غير ترتيبها الصحيح، درَّبت نفسي على التجاهل وقد كان مفيدًا جدًا.

أنا لا أحب الموت، ولم أرغب في استحضاره يومًا، فأنا وإن فقدت حبيبةً فقد امتلكت أخريات، صحيح أن أثرهن لا يماثل أثرها الباقي إلا أن الحياة استمرت بي، تغيّر الطعم قليلًا ولم أقلق، فالعمر يجري بنفس سرعة تقليل السكر في مشروباتنا، لم أكن أتخيل الحياة بدون السكر، والآن بتَّ أحتسيها مرةً.

يبدو أن العمر ينفد رغم عدم رغبتي في انتهائه، لا شيء يطيعنا للنهاية.

في أحد أيامي الجامعية كنت أجالس واحدة ممن أحببت، أكثر مَن أحببت، كنا نرتكن إلى جذع شجرة عجوز، نحتمي بظلها من عين السماء، احتويت كفها الشفيف بين كفيَّ، كدت أبوح لها بكل ما يعتمل في قلبي، سقط عصفور وليدٌ من أعلى، انسلَّت مني لأجله، حملته في كفها ومسحت زغبه بإصبعها في حنان، لمحتُ بعينيها نظرةً له لم تمنحها لي من قبل.

تستطيع أن تحب أشياء أكثر مني، أشياء صغيرة جدًا لم ألتفت لها، ارتبطت به، وامتزجت بظل الغياب.

كنت متأكدًا من موته، وأنا لا أحب الموت.

كل ما فعلَت أنها أجّلت موته لساعات، وربما لأيامٍ، منحته فترةً إضافيةً من الانتظار والخوف.

الحب قد يقتل، وقتله ليس رحيمًا.

لست بذلك القدر من الجنون الذي يجعلني أخسر حبيبتي لأجل عصفور بائس، لكنها هي... هي من أخذت ظلها وأخفته عن عالمي، أخفته ولم تُظهره من جديد، ويبدو أن هذا هو السبب في كراهيتي للعصافير.

أعلم جيدًا أنني السبب في التشوه الذي يظهر عليه خيال بطل الرواية، ربما سيعتقد البعض فيَّ ما ليس حقيقيًا.

ليس وعيي المريض الذي يفرض نفسه ويمنح بطلي حلمًا مقززًا، وآخر غير مفهوم.

في أحد المرات كنت مسافرًا ليلًا بعد أن أنهيت أسبوعًا كاملًا في التدريب الطبي، بعيدًا عن منبتي الأصلي، تتخيلون قدر شوقي ساعتها للرجوع لكن الطريق لم يطاوع، ثمانون كيلو مترًا لا تحتاج لأكثر من الساعة والنصف، هذا بحساباتي الطبيعية، الغير طبيعي هو ذلك التوقف الغير مبرر لسيارة الأجرة التي تقلني، صفٌ طويل من السيارات فقد قدرته على الحراك؛ مدة تربو على النصف ساعة، والانتظار يضاعف المسافات، بعدها بقليل نفد احتمالي وتقبُّلي للوضع، ترجَّلت من السيارة لأعرف السبب في توقفنا، رغم أن التفسير كان بعيدًا جدًا،

إلا أنني سايرت فضولي، وقطعت مسافةً تزيد على الكيلو متر، في النهاية ووسط حشد من المعطلين مثلي تبيَّنتُ السبب.

أحدهم صدمته سيارة في نهر الطريق ولم تلتفت، تركته وسط الليل مـــن دون اهتمام، لا بـــد أن صاحبها كان خائفًا لـدرجة الهلع،

غرق المصدوم في ظلام الليل والإسفلت.

ربما كانت صدمته غير كافية للموت فتركت به قدرًا يسيرًا من حياة،

لكن السواد المحيط سهَّل مهمة أخرى أكبر حجمًا لتمنحه نهايةً بشعةً.

سيارة عملاقة لم تتوقع جثةً في الطريق دهست رأسه بقسوة، نثرت جمجمته بما تحويه في عرض الطريق، ثم توقفت حزنًا عليه ليصيبني ملل الانتظار، ومرض الفضول، لم يتوقف السائق عن تقديم مبرراته لكل وجه جديد يظهر في الصورة، لم تكن السيارة هي السبب الرئيسي في التعطُّل، بل المدهوس، لم يجرؤ أحدهم على جمع رفاته إلى جانب الطريق، ولم تجرؤ سيارة على السير فوق الدم واللحم المنثور.

اشتعلت مصابيح السيارات كاشفةً حجم الكارثة، ومحذرةً من تدنيس بقعة الموت، كدت انفجر ضحكًا بينهم، لكن المأساة كانت ستجعل مني أحمق، هل يعتقدون أن هناك بقعةً لم تدنس؟

إننا نسير فوق الموت أيها الأغبياء، يبدو أن للعين أثرٌ يفوق العقل أحيانًا عند من يمتلك العيون.

لـــم أتخيـــل وقتها أن رغبتي في العـــودة ستغلب قـــرفي مـــن بشاعة

منظر الرأس المعجون.

قلت لهم: إذا جمَّعت نثار القتيل إلى الجانب، هل ستُحل الأزمة فنتحرك؟

صمتوا، والصمت لم يكن يعني الموافقة أبدًا، بل يعني "أرنا جرأتك".

حاوطتُ كفيّ بأكياس نافقةٍ على جانب الطريق، فاغر فاه، والعيون ممزوجة بالخوف والقرف، كان لا بد وأن أراه عن قربٍ، سأكون أقرب الوجوه إليه عند البعث، لم يمتلك ملامحًا أعرفه بها، فتجاوزت أمر اللقاء في الآخرة.

التصقَت رأسه بالإسفلت كما لو أنها من لحمه، حين جذبت جثته من القدمين سمعت صوت الرأس يتنازل عن أجزاءٍ منه، أودعته مكانًا جانبيًا، جرفت قدرَ ما جرفت من عجين رأسه، أقسم أنه لن يتذكر ماضيه بعد ذلك، وجاملت المتأملين بجرف شيء من الدم واللحم، حاولت قدر ما استطعت، تقريبًا أكملته إلا قليلًا.

غسَّلوا الطريق بالماء، وعادت الحركة للسيارات المرتجفة.

أحد المسافرين معي في نفس السيارة تبعني، وبالطبع رأى كل ما فعلت، تابعتُ نظراته المتوجسة لي طول الطريق، ألهتني تلك المتابعة قليلًا عن فعلتي، أنفقت كل الوقت في مداراة الابتسام، عندما وجدت سريري اكتمل وجه المدهوس في خيالي، وظل يمنع النوم عني لأيام لم أعدَّها.

أعترف أني لم أقصد أبدًا حفظ جسده، فمـــا لا يحدث لي لا يخصني، إنها طبيعةٌ لم أجادل الله فيها عند خلقي، وأحببتها من بعد.

كل ما فعلته كان لإزاحته فقط عن طريقي، ولو أن الطريق كان خاليًا، والسيارة خاصتي لما توقفت لحظة.

ربما منحته نظرة شفقة من نافذة السيارة دون مداعبة مكابحها.

★★★

أعجب ممن يمنح ابنه اسمًا جميلًا ليحيا به في عالمٍ شديد القبح!

لست أعرف سببًا منطقيًا يجعل أحدهم يسمي ولده (خالد).. إنه اسمٌ دخيل على واقعنا، لو خيَّروني لرفضته واخترت أي اسمٍ آخر، لن يهم مدى جودته، المهم ألا يدعوني الناس بـ(خالد).. عجيب أننا لا نختار أسماءنا، وغريب قولهم بأن لكل منا نصيب من اسمه، لا أعتقد أن والديَّ أرادا لي عدم الموت، فأنا لم أحب الحياة رغم اسمي، لماذا أظل خالدًا وقد يكون هناك من يتمنى فنائي؟

الموت يدور في كل مكان، يمتلك حرية الاختيار المطلقة، لا أعتقد أن شيئًا امتلكَ مثل هذه الحرية، ولا حتى الظلال.

الموت لا يعترف بثوابتٍ أو منطق، لا يلتفت لعدد السنين، ولا صحة الجسد، يفعل كل ما يحلو له، وما نحن إلا خيارات، مجرد خيارات ترضي غروره، وربما قسوته.

لا أحد في مأمن.

أجمل ما في الموت أنه لا يحتاج إلى مبررات، كالحب يأتي بغتةً، ولمرةٍ واحدة فقط، لكنه لا يتغير.

أنا الآن فوق سريري، أمارس لعبة الظل كعادتي، أحاول أن أرسم حبيبتي منذ فترةٍ ويئست، لم أنسَ أيَ دقيقة من تفاصيلها، فلماذا تغيب؟

يبدو أنها تحتاج لأكثر من اليدين حتى تكتمل صورتها.

لا شيء جديد في التلفاز، ما يجبرني على كراهيته، لولا احتياجي له لفجرت كل شاشات العالم، فأعيد للناس عقولهم ووعيهم.

لكنه يصنع معي الظلال حين يعمل، وهذا يكفيه للنجاة.

بالإضافة إلى منظر البحر الذي يسوقه إلى عزلتي، أفتقد رائحته جدًا، كلما شاهدت منظر الموج يلطم وجنة الشاطيء أدرك أنه ليس كل الصخب عنف، وليس كل السكون ارتياح، هناك أشياء لا يمكن الحكم عليها من ظاهرها، وأنا أحد هذه الأشياء، البحر حي أما أنا...

لحظة... ظلٌ يتشكل في سقف الحجرة، يتأملني، لا يشبه ظلها الذي أردت، لولا أنني بحاجةٍ للكلام لأغلقت التلفاز، وأفسدت تكوينه.

إنه يطيل صمته، ليست هناك ظلال خرساء، هيا عبِّر عن نفسك.

- لم تعرفني بعد؟

إن صوته مألوفٌ جدًا، وكأنه يأتي من داخلي.

- من أنت؟

- واحدٌ ممن كانوا معك بالمشفى.

إنني أستعيده بالفعل، نعم أتذكره جيدًا لكن صورته لم تزل باهتة، كان معي طيلة عملي بالمشفى، بدأ بدايةً رائعة، ثم أصابته نوبة سعال، من وقتها لم يتوقف عنه.

- أنت... أنت...

- نعم أنا هو، رفيق العمل أيها الطبيب.

- لم أعد هكذا منذ توقفت عن منح الناس الحياة، يمكنك أن تدعوني بالطبيب المعتزل، وأفضل المنعزل.

- ولماذا توقفت؟

- رأيتها جريمة أن أزيح الموت عن أجسادٍ تحتاجه بشدة، كي ترتاح.

- أومن بمعتقدك تمامًا، لذا بدأت وصححت الواقع.

- وكيف ذلك؟

- أنت تعرف كل شيء، عام من العمل لا يمكن أن ينمحي بسهولة.

- نعم. أتذكر كل لحظة من ذلك العام.

- فهل تتذكر تلك الفترة التي بدأ فيها المرضى يشفون من دائهم دون أسباب واضحة؟

- يشفون من دائهم؟!

الشفاء له أسبابه عادةً، أتذكر فقط تلك الفترة التي بدأ فيها المرضى يموتون بغير أسباب واضحة، سبعة من المرضى زاد سعالهم فجأةً وبصقوًا دمًا قاتمًا، أثبتت التحاليل كلها أن سلًا نشطًا قد اقتحم صدورهم، وفقدنا أثر مصدره الأول، حاولنا إنقاذهم بكل السبل ولم ينجَ واحدٌ.

حتى مع محاولات العزل، والعناية، تأكدت بعد موت الرابع أن الثلاثة الآخرين ماتوا في مشفى أفخم بكثير، لم يمنعهم الدواء ولا العلم من الموت.

أعتقد أنهم أصروا عليه، أو أن الموت أصر أن يأتيهم.

كان موتًا لا شفاء، هذا إن كنت قد أخطأت قصدك.

- أليس الموت شفاء من المرض؟

لن يمرضوا بعد موتهم يا صديقي، توقفت المعاناة، وللأبد. إنها حقيقةٌ، عندما تبرق عين أحدهم يتوقف السعال، يتوقف الألم، ويموت معه المرض.

في الحقيقة... أنا من أوقفَ تلك المعاناة.

- كيف؟

سعلَ بشدةٍ، شعرت أنه يفعلها لغايةٍ، فالظلال لا تمرض، يبدو أن صاحبه بالفعل مريض.

- حقنت البرتقال بالسل النشط، علمت أن صدورهم مريضة جدًا، ولن تتحمل جرعات منه، كنت محقًا، أكثر من عانى منهم لم يتجاوز الأسبوع.

- هل تعني أنك... أنك قتلتهم؟

يضحك الظل ساخرًا:

- قتلتهم؟ أنت من يقول هذا أيها الطبيب؟!

ماذا عن إزاحة الموت عن أجساد الذين يحتاجونه؟!

ماذا عن اعتزالك؟!

كنت تعرف أن الفشل الرئوي ليس منه مهرب، وقد امتلكوه في أقوى درجاته قبل أن أطعمهم برتقالاتي الرحيمة، أن يتوقف التنفس نهائيًا بسبب عدم قدرة الرئتين على تبادل الغازات، وتتحولان إلى عبء على الجسد، قد نحتال ببعض الأكسجين المجهز، ولكن إلى متى؟ فالدم لم

يعد يصل بعد انسداد مجاريه إليهما، تتعفن الأنسجة ببطء شديد، ويتحول القفص الصدري إلى قبرٍ حي.

كان الموت محتومًا، فقط قللت المعاناة، اصطحبت الموت في يدي إلى حجرتهم، عرَّفتهم إليه فلم يضل الطريق، ما كان حادثًا في شهور أنجزته أنا في أقل من أسبوع.

- ذلك لا يمحو عنك صفة القاتل أبدًا، أنت قاتلهم.

- فليكن، ولكني قاتلٌ رحيم.

- القاتل لا يحمل صفاتً مضافة، القاتل قاتلُ ولا شيء آخر.

- نعم أنا قاتل ولست أي شيءٍ آخر، هذا لن يضيف لفعلتي ذنوبًا جديدة، أنا قاتلٌ وسعيد أني قتلت، كنت فقط أرد الدين.

- أي دَين ذلك؟!

- هل تتذكر يوم سعلتُ وبصقت دمًا على البلاط أمام عينيك؟

(نعم أتذكره، كان يومًا مشؤومًا، وكان دمًا مظلمًا، كأن الروح قد انفرطت على الأرض مع السعال، معاناة الرئة حدّ الانفجار، هو موتٌ يشبه السعال).

- نعم، نعم أتذكرك الآن، اكتملت صورتك في عيني، أدركت أنك مريض لكنك لم تنطق، ولم تطلب مساعدة.

- جميلٌ أنك استعدت صورتي، هذا أفضل لكلينا، كنت أول من

أصيب بذلك المرض اللعين في تلك الوحدة الصحية النائية، لم تتوافر لي أي إمكاناتٍ تحجب عني مرض هؤلاء الحمقى، بعد تحليل

العينة الأولى من ريقي تعرَّفَ الموت إليَّ، قال لي الطبيب أنني أهملت مرضي إلى الحد الذي يصعب معه العلاج، ولم يعرف أنني أحببت دائي.

أخفيت أمرَ المرض ليحصد أكبر عددٍ من الأرواح، وجاء صديقك، تركته يحل المسألة ببساطةٍ، تركته يوقف عجلة الموت.

لم أتمكن من تحديد الذي فعلها بي وأفسد صدري، أكيدٌ أنه أحد مرضاي، حاولت أن أتغير فاقتربت أكثر من اللازم، وذلك ذنبي الكبير، كنت على مشارف الانتحار وقتها، أحببت هذه الطريقة في الموت، كثير من العظماء ماتوا يسعلون، ويبصقون دمًا فلم أعاند واستسلمت لقدري، لا أخفيك سرًا نازعتني الرغبة في البقاء أحيانًا ولكن بعد فوات الوقت، عرفت بحكم خبرتي القليلة أن عامًا واحدًا هو كل ما يتبقى لي، وأكدها الأكثر خبرة، تعمدت عدم البوح حتى لا يعتزلني الآخرون، تابعت تداعيات مرضي، وكيف يزيد يومًا بعد يوم، أدركت قدر المعاناة فأشفقت على مرضاي، لن يتحملوا الألم فهم لم يرغبوا في الموت مثلي، حقنت برتقالاتهم من ريقي، وأشرفت على إطعامهم إياها بنفسي، ألا أستحق لقب الرحيم؟

- أنت مجرمٌ مريض، قتلتهم لتنتقم وليس لترحمهم، صببت لعنك علي الناس جميعًا ومن دون تمييز.

- أنهيتُ الألمَ.

- بل أنهيت الحياة، تعرف أنهم أرادوها، وإلا ما لجأوا إلي مشفاك.

- جاءوا يطلبون الراحة من الألم، وأنا حققت مطلبهم بطريقتي الخاصة.

- أنت مجرد ظلٍ لعين، ظلٍ قاتل، هيا... لا أريدك في سقف حجرتي، هيا ارحل من هنا.

أغلقت التلفاز مع صراخي، أشعر بألمٍ شديدٍ في صدري، رئتي تكاد تقتلني، ليس معقولًا أنه فعلها بي ونقل عدواه إلى صدري، لا أشعر بأي شيءٍ سواه فألم الصدر لا يبقي مكانًا لأي آخر، أعلم أنه يتوجب عليَّ الهدوء قبل الموت، لا بد من الهدوء.

★★★

(٨)
تفاهات

اتفقنا من قبل أنه لا شيء تافه في مطلقه، قد يكون الامتناع عن ذكرِه أو استحضاره لفترة هو ما يكسبه تلك الصفة المجحفة، لكن صدقوني، لكل شيء أثرٌ باقٍ وإن غاب، ولكل شيء ميعاد عودة، بعض هذه الأشياء نتجنب ذكرها في البدايات، بحجة أنها غير مناسبة.

هذا بالضبط ما حدث عندما قررت الحكي.

ذكرت سابقًا أن السبب الرئيسي في انتقالي من تلك الوحدة الريفية إلى مستشفى الصدر المركزي كان (كرم) وحده، وللأمانة لم يكن هو السبب الوحيد، بل ولم يكن السبب الأول.

ارتبط أمر انتقالي بقصة تبدو تافهة، لكنها تركت أثرًا لن ينمحي ما حييت.

في أحد الأيام دخلت علينا واحدة من العاملات، لا أذكر اسمها، ولا اسم غيرها ممن يشغلون فراغات من دنيانا دون فائدة، فطبيعتي لم تسمح لي بالتعرف على الزملاء حتى، ذاكرتي لا تسعفني عادةً، وهم تجنبوا التعرف إليّ، ولا ألومهم فمظهري كان أساسيًا في خلق حاجز بينهم وبيني.

عادت من أجازة الوضع، حاملةً طفلها على ذراعيها في رفق، كان ذكرًا على ما أذكر.

المهم أنها جالت به على كل الحجرات تتلقى التهاني، وأشياءَ أُخر.

كنت جالسًا إلى جوار (كرم) ساعتها، دخلت علينا، فزَّ (كرم) من جلسته، أدركتُ شغفه بالأطفال، لدرجة أنني تساءلت في سري: (لماذا لم يعمل لأجلهم فقط؟).

لم يرها من قبل، لكنه قبَّل المولود، انتحل دور المهرج ليبهجه، في النهاية منحه قليلًا مما بجيبه، عندما فعلها مادت بي الأرض، تذكرت أنني نسيت محفظتي وبها كل النقود، فتشت جيبي مرات ومرات إلى أن أنهى (كرم) مجاملته الرقيقة، ولم تخرج يدي إلا بالهواء.

تواطأَت الظروف مع جهلي لأبدو صغيرًا جدًا، وهشًا حد الانكسار، فأنا لم أهتم من قبل بعادات من هم خارج حجرتي.

مررَته لي من بعده، قبلته متحرجًا، لم أفعل ما يتوجبه الذوق وحفظ المظهر.

لن تجيد تلك المرأة إحسان الظنَ بي، فهي لا تعرف عني ما قد يساعدها على ذلك، ولن تتخيل أنني أيّ شيء سوى...

منحتني ابتسامة خائبة الرجاء وقالت: أنت بخيل يا دكتور.

أعتقد أن تلك الجملة كانت بداية أشياءٍ كثيرة، أحسست أن العالم واسعٌ عليَّ، أو لنقل أنني ضئيل جدًا حد الاختفاء.

مدَّ (كرم) يده في جيبه من جديد ومنح الطفلَ ما كان يتوجب عليَّ منحه، قال: هذه من الدكتور (خالد).

زاده الموقف تألقًا، ولم يزدني إلا خسارًا.

حطَّ صمت مطبقٌ فوق رأسي، ذرفت العرق كمن يغتسل بخجله،

رأيت العيون تتهافت إليَّ، أكثرها مستنكرٌ، وقليل مشفق.

وددت لو كانت كلها مستنكرة، غبت أسبوعًا كاملًا، عدت بعدها محملًا بمبلغٍ محترم علَّه ينفي عن نفسي صفة البخل، سألت عن العاملة، أخبروني أنها تحتضر منذ أيام في المستشفى المركزي، أما الطفل فمات، قتلته رئته في يومين.

عجيب ذلك اليقين الذي تمكَّن مني لحظتها، قبلتي هي التي قتلته.

لم أطق التواجد في ذلك المكان، حاولت كل جهدي الانتقال إلى أبعد مكان عنه، مدَّ (كرم) يد العون في عطف وساعدني.

أرسلني إلى مكانه بتوصية خاصة منه لتبدأ الحكاية كلها.

★★★

الطيور أكثر الكائنات حزنًا عند الفراق، فالسماء أوسع بكثير من أجنحتها الضعيفة، ما يجعل مجرد الأمل في لقاء جديد دربًا من الخبل والجنون.

لم يفارقني طيفها قط، خيالي يحاول استدعاءها منذ فارقَت، ولم يمنحني سببًا وجيها لذلك الإصرار، ليس مهمًا كونها الأولى، المهم أنها كانت بلا شكٍ الأخيرة، والحقيقية بين كل الخيالات التي قابلتها.

لم تمتلك في الحضور ما يبرر أفعالي عند غيابها، بعدها فقدت شعوري بالحياة، توقفت عن ممارستها، وحتى محاولاتي اليائسة لم تفلح في محو أثرها، أيقنت متأخرًا أنها كانت الحياة، وأنني فقط من أغمض عينيه.

عشقت رائحتها من قريب، لم تزل ترافقني، لا أكذب حين أخبركم أنني كنت أعرف وجودها من عدمه بدايةً من أسوار الجامعة.

لولا أن الأمر مرتبطٌ برائحتها فقط لظننت أن روح كلب مدرب قد تلبستني.

يا إلهي! ما هذا الوصف المخجل.

حافظت على عينيَّ مغلقتين لأطول فترة ممكنة بين الناس، لم أرد لوجوه أخرى أن تزاحمها عيني، جميلٌ أن تنغلق على إحداهن في غياب الآخرين، تعيش معها كل فترات الخيال، وحدها ولا أحد معها.

وُجدت بين الناس بغير إرادتي، وذلك ساعد في الحفاظ على حالة انغلاق العينين.

لم تكن قابلةً للغياب عن عالمي وقت فعلتها، لم تمهد للأمر، وذلك الذي قتلني، عرفت أنني لم أمرض بها؛ فالمرض يحتاج وقتًا ليقتل، وقد كان قتلي سريعًا.

أحيانًا يكون الموت هو الحل الوحيد للتخلص من أوجاع القلب، وميتة واحدة حقيقية قد تشكل الرحمة في أجمل صورها، هذا خير من أن نعيش الموت مجازًا آلاف المرات بينما نحن محسوبين على الحياة.

أخيرًا...

رائحتها قريبة مني كما في الأيام الخالية، أتنفسها بروحي، أنتقيها من بين ذرات الهواء العادي، إنها رائحةٌ خالصة من دون أي شوائب، تعرف طريقها إلى أعماق روحي.

لا بد أنها هنا، لن تكون الغائبة الوحيدة من بين كل الظلال.

عزلتي ليست بتلك القسوة التي يعمل بها الخارج، إنها هنا، كعادتها صامتة، تنتظرني أن أبدأ، أن أصحح خطأ الماضي.

عندما أخفف الأنوار ستظهر لتعيد سيرتنا الأولى، لتعيدني إلى الحياة، ها هي الأنوار تخفت، سأمنحكِ ما لم أقدر عليه في الحقيقة، هيا تعالي.

لن يتأخر ظلها الآن، لم يتأخر إلا مرةً واحدةً من قبل، كانت... هي الأخيرة.

ستعود حتمًا، لم تكن أبدًا قاسية للدرجة التي قد تقتل مرتين، هيا أيتها الطيبة، نعم لم تتأخر، لم تزل ناظرةً إلي الأرض في خجلٍ، تخشى أن تلتقي العيون فتنفضح الأسرار.

- تأخرتِ كثيرًا.

- لم أعرف أنك تحتاج وجودي.

- لم تعرفي؟! لقد فعلت كل شيء من أجل الحفاظ عليكِ، خرجت من شرنقتي، واجهت المرايا، جعلتكِ مرآتي، وأدخلتكِ عزلتي بكامل إرادتي، كل ذلك فقط لأبقيكِ.

- فعلتَ أي شيء من دون كلمة واحدة.

- أي كلمة تلك التي يدور الكون كله حولها؟

أي كلمة غيابها يجعل من كل ما فعلت هباءً منثورا؟

لقد احتفظت بآخر صورة شكلتِها لي بيدكِ، أعلم أنني لا أشبه الذي عرفتِه من قبل، لكني مازلت أحتفظ بمرآتكِ، مازلت أحمل نفس القدر من الحب.

- هذه هي الكلمة.

- الحب؟! أنتِ تعلمين أنني...

- أنا لم أعلم أي شيء، ولا أريد.

هناك كلمات لو صدقتها ما استطعت أن تكتمها، أنت لم تقلها لتبقيني، ولم أقدر على تحريرها من قلبك.

- ذلك ما جعلكِ تنتحلين دور السراب؟

- ذلك ما جعلني أبحث عن الحقيقة.

- تزوجتِ.

- فعلت ما يجعلني امرأة طبيعية.

- وما يجعلني مسخًا شائهًا منعزلًا.

- صدقني، وجودنا معًا لم يكن له معنى.

- وجودكِ معي كان الحياة بالنسبة لي.

- الحياة لا تكتمل بواحدة فقط، لا بد من بشرٍ آخرين.

- شعرت بها كاملةً معكِ.

- أنت تكذب، اكتمالك في وحدتك، وهذا ما أخافني أكثر من كتمان المشاعر.

- كنت سأجعلكِ وحدتي.

- وماذا عني أنا؟ لم تحبني.

- بل أحببتكِ، أحببتكِ قدر وحدتي، وقدر خوفي من الحياة.

هل تذكرين يوم سقط العصفور أمامنا؟

سألتكِ بعدها، كيف حال العصفور؟

أجبتِ ببساطةٍ، عاد إلى حريته، رأيت قدر الحب الذي ملأ عينيك تجــاه العصفور، رغــــم ذلك لم ترغبي في الاحتفـــاظ به، لم تمنحيه خيارًا للبقاء، ربما أغلقتِ نافذتكِ في وجهه بعد أن أطلقتِه للضياع.

- العصافير تحيا في البراح أطول، وأنا أردت له الحياة.

- هذا لو لم تكن بنادق الصيادين موجهة للسماء.

أطلقتِه وتعلمين أن الشمس ستحرق أجنحته الضعيفة.

- وربما لن تحرقها.

- صدقيني، ستحرقها، فالعالم ليس آمنًا للعصافير، والوقت بات أسرع من أن يمتلك جناحًا قويًا.

- رأيت بعيني أنه لم يعد آمنًا.

- كنتُ لأكسر للعصفور جناحًا فأمنعه من الرحيل، كنت لأحقق كل أمانيه وهو بجانبي، كان سيعيش ولو حتى لفترة قصيرة، لكنها بالتأكيد أطول من فترة عيشه بالخارج.

على الأقل كنت سأحافظ على جثته بعد موته، هل تعرفين أين يرقد رفاته الآن؟

ربما في أحشاء قطٍ، أو طيرٍ جارح، وربما مات في العراء ولم يلتفت له الوجود ليتعفن، ويدنس بقعةً من دنيانا.

فرد ظلها يديه قائلًا:

- تأملني جيدًا، هل أشبه العصافير؟

لم أفهم سؤالها، ولم تنتظر مني إجابةً.

تحولت إلى ما يشبه العصفور، رفَّت بجناحيها حتى شعرت بالهواء يهيج من حولي، طارت محترقةً دون أن تترك وراءها اتجاه.

أصرخ في المكان:

- كنت أحبكِ... أحبكِ.

أعرف أن كلمتي ليست في وقتها المناسب، وأعرف أن دخانها سيضيع ككل العصافير في البراح.

اللعنة على ما لم نقله، اللعنة على ما نعتقده.

اللعنة على العصافير.

★★★

(٩)

تكملة الحكايات

آسف على مقاطعتي لـ(خالد).. لكن الأمر يستحق، هل تتذكرون ذلك الذي أورثني خوفًا لأيامٍ عدة بعد أن لملمت لحمه من قارعة الطريق؟

ما زال يسكن عقلي الباطن، رغم عدم اكتمال ملامحه.

كان شابًا يافعًا، نعم.. الجسد بدون الرأس قال ذلك، ربما أنه في مثل عمري، فالحجم قريبٌ جدًا، لم أنشغل بالتفكير في ماذا لو كنت مكانه؟

فلا أحد يأخذ مكان آخر في هذه الحياة، كل ما يحدث هو لغايةٍ لن تتضح إلا بعد اكتمال الصورة.

قد أتقبل كوني أنا الذي دهسته، فأنا أمتلك الآن سيارة، أجيد القيادة المتهورة، وأشرد كثيرًا حين يمر بي طيفها.

لكني أعتقد أن لذلك الشاب قصة بائسة كجسده عند النهاية، فنهاية كتلك لا ينبغي تجاهل بدايتها، لا بد من استحضارها ولو عن طريق الظن.

عندما سحبْت جثته لم ألمح له ظلًا برغم المصابيح الكاشفة، اعتقدت أنه يرقد تحته فالجميع يمتلكون واحدًا، وحين عدت لأجمع الرفات لم أجده أيضًا.

لا بد أن ظله قد فارقه قبل الموت بقليل، فلا أحد يحيا طويلًا بدون قرين، وأكيدٌ أنه لن يتعرف على صاحبه بتلك العجينة من الملامح، فتشوا ملابسه فوجدوها خاوية، جثة من غير وجهٍ، ومن غير بطاقة تعريف أو حتى ظل.

ما زاد الأمر صعوبةً أنه مات في مكان غريب عنه.

سيودعونه قبرًا بلا عنوان، فهو لم يمتلك اسمًا للشاهد، قاسية تلك الميتة، أن تُنسى بينما شيء منك باقٍ بعد الموت.

سيبدأ عذاباته مبكرًا، مبكرًا جدًا.

أتمَّ تعليمه في سن السابعة عشرة، هذا يليق بأبناء الطبقة الدنيا، بادلَ الحياة بالعمل، أفضل ما أُتيح له وظيفة نادلٍ في مقهى فاخر، خوفه من الحياة، وطبيعته المستكينة أجبراه على عدم تبديله، أجبراه على قتل محاولات التغيير، والرضا بالحياة على الهامش.

عملَ أغلب ساعات يومه دون توقفٍ فقط ليحافظ على مأساته، لم يجد وقتًا طيلة عمره لأي شيء، لا للهو، المرح، الفرح، أو الحب.

ست عشرة ساعة من العمل اليومي تكفي أن تصيب حياته بالجمود والضمور، وأن تصيب ظله بالملل، فالطريق واحدٌ، والجدر ثابتة.

تركَ العالمَ يتغير من حوله دون مجاراة، ومن تلك الأشياء التي طالها التغيُّر عقلية صاحب المقهى.

استبدلَ بعض العاملين من الذكور بالإناث ليواكب الذين يجاورونه، كان ممن بقوا فهو أقدم الذكور لدى الرجل، وأقربهم إلى قلبه.

عندها انفتح أمامه عالم من الكائنات الهشة التي تختلف عن الذكور يمكنه الاقتراب منها، ولأنه الأقدم فقد تحمَّلَ مسؤلية تعليم الجدد، فاقترب أكثر، وتحول القرب إلى التحدث وتبادل الكلمات.

كانت جميلة في براءتها، هكذا رآها، ليست أجمل من رأى، رغم ذلك لم تنقصها الأنوثة الكاملة، وذلك مناسب جدًا لمن حُرم النساء دون اختيار، بل أفضل ما سيحصل من الدنيا عليه من دون اختيار.

منحتْه قسطًا من الاهتمام لم يقدر على تجاهله، حين اخترقت صدره بنظراتها دبّت في قلبه الحياة للمرة الأولى، وبدأ وجع الحب اللذيذ يسلبه ساعات راحته المعدودة، حتى ظهرَ على ملامحه شبح الأرق والفكر، وهما قاتلان.

باحت له بما يعتمل في قلبها من دون مقدمات، سقطت صينية المشروبات من يده، وكلفه ذلك أجرَ يومٍ كامل.

لملم خجله مع شظايا الزجاج المنثور، حين أنهي الأمر وجدها قد غادرت، لم تسمح له الحياة أن يعرف شيئًا من أمر النساء، حتى وإن لم تقع منه الصينية كان سيلتزم الصمت، أدركَ اهتمامها به منذ اللحظة الأولى، دارى عينيه عنها كي لا يرتجف أمام الآخرين، العشق فضَّاحٌ، انتظر بعدها طويلًا أن تعيدها فلم تفعل.

انعدمَ إحساسه بالزمن قبل أن يلقاها، اعتقدَ أن الجميع يملكون نفس تقديره للوقت، وبعدها تعلَّم كيف يحسب الساعات.

في أحد المرات فاجأ صاحب المقهى جميع الحاضرين بحفلة صغيرة، قال إن جميع المشروبات في تلك الليلة على حسابه الخاص، هاج الجميع وعلت الهتافات المبتهجة، أعلن بعدها زواجه من البنت البريئة على الملأ، غطت الموسيقى الصاخبة، على وقع صدمته. لم يقدر على استعادة جمود قلبه بعد أن دبت فيه الروح، تأمَّل وجهها المضيء لدقائق، ظلَّ يخفت نورها في عينيه حتى انطفأ.

تساءل في نفسه هل خدعتني؟

حبها لم يكن على قدر رفضها الزواج من رجلٍ مسن.

أصابته نوبة هياج لم يعتقد أنها بداخله من قبل، ولا واحد من الحاضرين أيضًا، أفسدَ الحفل وكعكته وسطَ دهشة الجميع، ثم جرى خارج المكان ولم يترك وراءه مبررًا لكل ما فعله.

هرول في الطريق حتى فقد أنفاسه، أوقفَ أول سيارة انتبه لمرورها، عندما سأله السائق إلى أين؟

أجابه: إلى أبعد مكان عن الناس.

انطلقت السيارة بغير وجهة معلومة، كان شروده والتفاته للسماء المظلمة مثيران للشك، ما اضطر السائق إلى سؤاله:

- هل تمتلك الأجرة؟

عندها انتبه إلى أنه جرى بملابس العمل، ترك كل شيء وراءه، النقود، وتعريف الشخصية، لم يكن السائق أقل قسوةٍ من عالمه، أوقف السيارة بشكل فجائي، وانتهى الأمر بنزوله وسط الطريق المظلم تتبعه لعنات الرجل.

ابتلعه الليل، وأخفـاه الظلام، تذكر أنه لم يصـــارحها بمشاعره،

أنه لم يمنحها مبررًا لرفض الآخر، عشقَ وغاب عنه أن العشق بوح، فقد كان جديدًا في عالم العشاق.

حين اكتشف خطأه، لم تمنحه الحياة الفرصة ليصححه.

مات على الطريق، وفقد كل ملامحه، وربما ظله أيضًا.

★★★

لا أملك سوى الاحتجاب كلما طاوع الكاتب رغبته الشخصية في الكتابة، وستبقى حكاياتي هي الأهم، وإن حاول تجميل حكاياته، لأنني البطل.

هناك ما نخجل من البوح به، هي قصص نحتكرها إلى أن تُدفن معنا، قصصٌ لم يكتب لها النجاة، وهي التي ستتحول إلى فضائح شائنة يوم الحساب، ولأنني أفضِل خجل الدنيا آثرت الحكي.

لم تنسوا بعد قصتي في مرحلتي الابتدائية من الدراسة، موقفي المشين مع الصغيرة التي أحبتني (جميلة).. وعجزي الكامل عن حمايتها، ذكرتُ لكم أنني اعتزلت المدرسة لمدة أسبوع كامل، ادعيت فيه المرض لأفلت من ثرثرة الأم والأب.

عجزت عن مواجهة اللوم في عينيها فهربت، بعد عودتي وجدتها قد لملمت شظايا قلبها ورحلت إلى عالمٍ لا وجود لي فيه، فعلت خيرًا بي وبنفسها.

في فترة الأسبوع تلك كنت قد بدأت مرحلة الانغماس في المرايا، أخبرتها بسري الكبير ولم يعرف أحد، ولا حتى أمي، لكني نسيت أو لنقل تحرّجت أن أذكر لكم السر.

كانت امرأةً عجوز اعتدنا مرورها علينا مرةً واحدةً كل شهر، تبيع خبزًا لأمي، أحبته أمي وفضلته على كل أنواع الخبز الأخرى، إنه الخبز البدوي الذي لم أحبه أبدًا ولم أقربه البتة.

بدت تلك العجوز في بدايات الستين من عمرها، لكن طبيعتها البدوية حافظت على شيء من حيويتها، لم تنحنِ تحت وطأة العمر، إنها

طبيعتهم القاسية التي تمكنهم من تجاهل ما لا نقدر نحن على تجاهله، ظهرت أكثر صحةً وسلامةً من واحدةٍ مثل أمي التي طرقت وقتها نهايات الثلاثين.

وبرغم أني لم أرتبط بأي شيء من قبل، إلا أنني كنت أصر على حضور فترات تواجدها عندنا، لم تتجاوز في أي مرةٍ دقائق معدودة، تُناول أمي الخبز، وتناولها أمي النقود ثم ترحل، لا أتذكر أنها تخطت حدود بابنا أبدًا، إلا أنها عادةً تترك وراءها رائحةً تسكن الشقة وأشمها بوضوح، وربما أمي أيضًا، لم أعرف كنهها وإن حاولت، إنها لا تشبه رائحة المدينة، هي أقرب لرائحة التاريخ الغابر.

في أحد الأيام خرجت أمي بعد أن اطمأنت على حالي لتتسوق بنفسها، وتلك من المرات النادرة التي فعلتها، بالطبع لم يكن أبي موجودًا، فاجأني جرس الباب فقد كنت أبكي بحرارة، عندما فتحت وجدتها أمامي مباشرةً، كانت مرتي الأولى التي أدقق في ملامحها، بشرتها الصخرية الملساء، عينيها السوداوين، وذلك الوشم العجيب على ذقنها يشبه شمسًا زرقاء اللون.

بدت لي بالغة الضخامة، فقد كنت في بدايات التكوين، إحدى عشرة سنة غير كافيةٍ لإظهار طينتي الحقيقية.

سألتني عن أمي، أخبرتها أنها في طريقها للوصول، للمرة الأولى دخلَت شقتنا عندما علمَت أن أمي لن تتأخر كثيرًا.

عانيت بشدة في عزلتي ألم الموقف المهين، ويبدو أن أثرَ البكاء ظهرَ على عينيّ ساعتها.

بعد دقائق من جلوسها وصمتي سألتني: كنتَ تبكي؟

ولأنها الحقيقة لم أقدر على الكذب في وجهها.

أومأت برأسي في براءةٍ، قالت بجديةٍ: تعال إلى هنا.

وقفت أمامها فساويت رأسها جالسةً.

وضعَت يديها على كتفي وقالت: الرجال لا يبكون.

لم أرُد، فقط انسابت دمعاتي دون وعي، أسكنتني حضنها في حنان وتابعت: لا بد أن الأمر يستحق البكاء، اِبكِ يا صغيري.

نفَّذت وصيتها واستغرقت في نوبة بكاءٍ عميقة، زادت ضمتها لي وطاوعتها، كنت بحاجة للبكاء في حضنٍ غريب، تبيَّنت وقتها سر الرائحة التي نشرتها دائمًا، كرائحة رمال الصحراء حين تختلط بعجين الخبز.

طالني دفء حضنها حتى إنني تعرقت، أخذَت تمسح على ظهري برقةٍ لا تشبه ملامحها، استسلمتُ لها تمامًا، أحسست بكفها ينزل إلى أسفلِ ظهري، لامسَتني، تحولت لمساتها إلى الاعتصار، وتحولت مؤخرتي إلى برتقالة في كفها الكبير.

شعرت بجسدي يرجف، وروحي تفور، النار تستعر بالأوردة ولم يكن مثل ذلك الإحساس قد طرق بابي من قبل.

دفنتني بين ثدييها المتهدلين ككيسين غير ممتلئين بالماء.

بعد أن تأكدَت من كامل اشتعالي واستسلامي رفعَت جلبابها الأسود السميك، باعدَت بين فخذيها لينفتح الجحيم، ضمتني إليها من أسفل بقوةٍ كادت تكسرني، لم أدرك أن سروالي قد سقط إلى أن لامسَ لحمي لحمها، غبت داخلها، أُصبت بأمتع درجات الألم، ارتعشْت سريعًا ولم تفلتني، ظلت تضغطني إليها في عنفٍ غير واعٍ، عجزت عن الفكاك رغم الماس الكهربي الذي أمسك بأسفلي.

استعملتني حتى ارتعشَت هي الأخرى، بعدها دفعتني بعيدًا، وارَت جسدها في عجلةٍ أسقطتني على الأرض، لم تكن ارتعاشتها قد خبَت تمامًا إلا أنها نهضت مغادرةً، وتاركةً وراءها كل ما حملَت من خبز.

تركتني على الأرض ويقيني بأني قد بلت على نفسي كطفلٍ رضيع يتملكني.

مرت فترة حتى هدأت روحي، واستجمعت كياني المبعثر، أسررت لمرآتي بكل ما حدث دون خجلٍ، ولم تفاتحني أمي فيه، سألتني فقط كيف أنها تركت الخبز ولم تأخذ مقابله؟

كنت أعرف إجابة سؤالها، ولم أجب أبدًا.

لم ترجع العجوز بعدها، ولو لأجل النقود، عرفت أنني لست الوحيد في هذا العالم الذي فقد القدرة على المواجهة.

كنت على استعدادٍ تامٍ لحفظ سرها مقابل تكرار ذلك الألم.

عرفت أنه ليس كل الألم وجعًا، فهناك أشياء ألمها لذيذ.

بُلت على نفسي مرارًا عن قصدٍ لأستعيد المتعة، ولم أستطع الحصول عليها مطلقًا.

★★★

أشعر بالحاجة للاعتراف متجاهلًا أمر بطلي تمامًا، متأكدٌ أننا كلنا مجرد أخطاء تمشي على الأرض، لم أكن يومًا من دعاة التطهُّر بالاعتراف، وليس هناك ما يجبرني عليه سوى رغبتي الملحة في التواجد هنا.

قضيت فترة التدريب الطبي على مسافة من الأهل والبيت، يسمونها فترة (الامتياز).. ولست أعرف سببًا واحدًا لذلك المسمى، جميعنا نتخرج بقدرٍ يسير جدًا من الإمكانات العملية، بعيدين كل البعد عن الممارسات الفعلية، نبحث عن معلوماتنا في أجساد المرضى، وربما نقتل واحدًا أو أكثر خلال فترة التجريب ـ كما أحب تسميتها ـ.

لا يهمني كينونة النظام التعليمي في بلادي، المهم هو تلك العاملة الصغيرة السن التي توزع الضوء على كل من حولها.

كانت تقريبًا في عمر الثامنة عشرة، وأجمل من عيني حين رأيتها، لم يستطع ضيق حالها الظاهر، ولا الجهل بالقراءة والكتابة أن يحجب تلك الجاذبية التي سكنت عينيها، حصلت بطريقةٍ أو أخرى على مكان لها في ذلك المشفى.

لم تخطئها عين واحدة في وجودها، بدايةً من المدير، وحتى طلبة التدريب حديثي التخرج.

في اليوم الأول من تدريبي أشار ناحيتها أحد المخضرمين من الأطبـــاء قائلًا:

هذه العاملة لها عام واحد صارت فيه أشهر من المستشفى نفسه،

احذرها، وأعتقد أنها لن تفلتك.

أسميتها (الحلوة) ونسيت أن أسأل عن اسمها، الجميل أنني اخترت لها ما يناسب وصفها، فأحببت مناداتها، ولو حتى لأسبابٍ واهية، المهم أنها تحضر وتملأ عيني بما يفوق الجمال نفسه.

مر أسبوعان من المتابعة، تخيلت كل ما فيها أثناء نومي، من قمة سمائها وحتى أعماق جحيم أرضها.

كنت لم أزل على العهد مع حبيبتي، لكن خيالي هو أمر خارجٌ عن إرادتي، لذا لم يقاتلني ضميري في أي مرة، رغم أنه خيَّل لي ما يستحق التأنيب.

ذات مرةٍ مال نفس الطبيب على أذني هامسًا: تخلص من سذاجتك، الجميع هنا يلحظون حضورك قبل موعد العمل ويتغامزون، لا تستعجل الأمر، ربما أنها لم تنتهِ من الآخر بعد.

كانت مرتي الأولى التي أشعر فيها بالعري بين الناس، والخجل من العيون، ما دامت الشمس تطلع فلا سبيل للاختباء.

عجزت عن مواجهة الآخرين لأسبوعٍ كاملٍ، كلفني شهرًا إضافيًا إلى فترة تدريبي.

في يوم العودة الأول قصدت تجنبها تمامًا، اقتربَت مني خلسةً وقالت: أهناك من تنظف لك شقتك؟ أم أنك تريد واحدةً؟

لم أكن قد تخلصت من خجلي الأول، ارتعشت شفتاى ورددت بغير وعي: شكرًا، أمي بالبيت.

ابتسمَت لكذبي، ربما كانت على دراية بوحدتي في مدينة تبعد عن أمي كثيرًا، وأكيدٌ أنها جمعت معلومات كافية قبل الهمس في أذني، مثلها يعرف جيدًا ما يريد.

فقدتُ حبيبتي بعدها بقليل، وظل سبب الفقد مجهولًا، فقط رحلت ولم تعد ثانيةً، انتابتني حُمى الفراق والوجع، بدا ذلك واضحًا على وجهي الذي أظلمَ وفقد روحه المعتادة.

همسَت ثانيةً في أذني، وباهتمامٍ مصطنع: ماذا بك؟

تخليت عن خجلي، رددت همسها في جرأةٍ أورثتني إياها حالة الفقد القريبة: هل تنظفين شقتي بعد انتهاء العمل؟

ابتسمت قائلةً: وأمكَ؟

أجبتها: لم تعد بالبيت.

هزت رأسها موافقةً، وابتعدت في دلال كاد يفضح سرنا.

انتظرتها أقل من توقعي، فقد جاءت بعد موعد العمل بما يكفي للطريق فقط، عرفت أنها تهتم لأمري بالفعل، تركتها ترتب الشقة بالكامل، أعادت كل شيء إلى مكانه الأمثل، وفوق وجهها علامة استفهامٍ كبيرة، هل كان يقصد تنظيف الشقة بالفعل ولا أي شيء آخر؟

حاولَت استثارتي بحركات تمثيلية واضحة، بينما أنا متحجرٌ في أحد الأركان كقطعة من أثاث الشقة، أسترق النظرَ بقدرٍ يسير.

أنهَت عملها كاملًا، سألتني متعجبةً: أنهيت عملي، هل تأمرني بشيء آخر؟

أجبتها بخجلٍ يقيد غريزتي الفائرة: سلمَت يداكِ.

لم تجد بدًا من الأخذ بزمام المبادرة، خلعَت ملابسها كلها لتجردني من جبني وترددي.

سحبتني من يدي كولدٍ حان موعد نومه، اتجهت بي إلى حجرة النوم، ارتجفْت في يدها كورقة شجرٍ تذروها رياح الخريف، حرارة جسدها أنبأتني بأنني على وشك الاحتراق التام، أحسست أن الطريق إلى السرير طويل جدًا، أطول من كل عمري الذي مضى، عند الوصول قالت: لماذا تحجب بصرك عني؟

رأيتها مخلوقةً من بعض نورٍ، وبعض نارٍ، أجمل من كل خيالاتي التي شكّلْتها، ارتمت على الفراش في دلالٍ ملهب، تلوَّت كأفعى تغيِّر جلدها إلى أن استقرت على بطنها، سقطت عيناي من وجهي والتصقتا بردفها الكامل الاستدارة، فقدت الملابس أى معنى فوق لحمي.

- هيا المسني، لا تخف، ناري ليست مُحرقة.

احتبست الأنفاس في صدري، إنها غواية الجسد التي تستحق الخوض في الجحيم، لم تستسلم لرهبتي، منحتني وجهها، تفتَّحَت كاشفةً صندوق أسرارها، عرفت لحظتها لماذا خلقت النار، وكيف تبدو الجنة.

عندما لمستها بكفي، تسللت دماؤها إلى عروقي، وتسللْتُ إلى أعماقها، كنت أعرف أن تلك الأمور تحتاج إلى تمهيد، فقاومت الحيوان بداخلي، لكنها أطلقته إلى منتهاه، انطفأتُ سريعًا، وظلت مشتعلةً، رغم ذلك رأيت ابتسامةً على وجهها، ربما عرفَت أنها مرتي الأولى، والمرة الأولى دائمًا تأتي ساذجة، فلم تُرد إظهار نقصي، بل دارت على خيبتي بخبرتها التي لم أعرف كيف اكتسبَتها في تلك السن المبكرة.

ما أحزنني وقتها أنني لم أفعل ما يستحق العذاب، طرقت باب الجحيم طرقات خفيفة، وسريعة جدًا، لم تكن تكفي لفتحه، رغم ذلك انفتح، وعلى مصراعيه.

بعد أن بردْنا أراحت رأسها على صدري العاري وبدأت تحكي، أخبرتني أن لها زوج مسجون بتهمة القتل عن عمد منذ ثلاثة أشهر تقريبًا، وأن هناك عمرًا بأكمله سيقضيه هناك.

اشتكت لي أن بطنها تؤلمها من آنٍ لآخر، اعتذرت لجهلي بأمور النساء، ومتعللًا باختلاف التخصص.

عند الباب منحتها ورقةً من فئة العشرين جنيهًا، كان أجرًا جيدًا لتنظيف شقةٍ فقط، نظرَت فيها، كوَّمَتها في كفها باستخفافٍ وابتسمت مغادرةً.

فعلناها بعدها بأيامٍ، وبنفس ترتيب المرة الأولى، لم يظهر عليها أي علامات استياء، لذا اعتقدت أن المرة السابقة لم تكن سيئة، ضحكَت وهي تنظف الشقة فقد شعرَت أنه لا أمل في تغييري.

في النهاية منحتها أجر تنظيف الشقة... فقط.

قالت لي عيناها وهي تنصرف أنني مجنون، أو أبله، ذلك ما شعرت به.

غابت بعدها لأيامٍ ثم عادت معلنةً أنها حامل في بداية شهرها الرابع، يبدو أن ذلك هو سبب آلام البطن التي لازمتها في الفترة الأخيرة، عندما برقت عيناي مال الطبيب عليَّ قائلًا: تاريخ الحمل يبدأ قبل أن تعرفك، هذا جيد بالنسبة لك.

استراحت من العملِ باقي شهور حملها، عرف خلالها الجميع قيمة وجود العاملة، فالمستشفى بدونها يختلف تمامًا عن وجودها فيه.

جاءتنا بوليدها تستخرج له شهادة ميلادٍ، مرت به على كل الحجرات تتلقى تهاني وعطايا الجميع، عندما وصلتني اكتشفتُ أني نسيت نقودي

في المسكن، كنت الوحيد الذي خالفَ العرف السائد، قبَّلت الولد ولم أجد ما أمنحه إياه.

نظرت لي مبتسمةً وكأنها أكدَت معتقدها: أنت بخيل يا دكتور.

لم يكن رد فعل صديقي كافيًا لتغيير معتقدها، في تلك المرة فهمت قصدها تمامًا، لست (آلان ديلون) وليست أكثرَ من غانيةٍ، نحتاج أحيانًا لتسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية، منحتها أجر العمل ولم أمنحها أجر المتعة الذي انتظرته، حاولت ألا أجرح مشاعرها، فاشتريت جسدها دون مقابل، كنت غبيًا حين اعتقدتُ في رغبتها بالوجود إلى جانبي، رأيت نفسي أفضل من كل من سبقوني، ومنحت ذاتي استحقاقًا بغير حق.

ساعدَت الظروف على منحي صفة البخل، وأكدَتها.

بعد أسبوعٍ آخر من الخجل أحضرت المال، ولم تحضر هي، علمْت بعدها أن وليدها قد مات، وأنها تبعته سريعًا.

مات الاثنان بنفس الداء الصدري القاتل، رغم أني لم أعانِ منه، لكني أعتقد أن الموت كان رحيمًا بهما، فلربما ماتت وتركته للقطط وقسوة البشر في ليالي البرد، سيكون مصيره الموت رجمًا بالتأكيد، حتى وإن بلغَ العاشرة من عمره، أو تحت سيارةٍ في عمرٍ أكبر.

أما هي فقد تخلصَت من أي مجنون قد يؤذيها بمحاولات التجميل الغبية.

★★★

(١٠)

جدال

الأطفال يصدقون أحلامهم، لا يملون تكرار الكلمات، الأفعال، الألعاب، وإجابات الآخرين على أسئلتهم، إلى أن نعلمهم الكراهية.

جميعنا أطفال بقدر أكبر من الكره، نكرر نفسَ الأفعال، الروتين اليومي، والأيام المعادة، كلها أشياء تقتلنا ببطءٍ، الفرق بيننا وبينهم هو قدرتنا على الكذب، والمداراة خوفًا مما قد يترتب على صدقنا، الخوف يعلمنا الخضوع والتظاهر بغير الحقيقة.

لم يعد هناك أمر غير متوقعٍ في هذا العالم، فالمعطيات محدودة جدًا، والزمن طويلٌ جدًا جدًا، ما يجعل محاولات إعادة ترتيب المعطيات والخروج على المألوف أمرًا مملًا، سخيفًا ومكررًا.

التاريخ يعيد نفسه بدرجة تجعلُ من دارسه عرّافًا، ولست أجد سببًا مقنعًا لعدم إقدامه على الانتحار جراء الملل.

نحن نمارس نفس اللعبة التي تقودنا إلى نفس النهاية، وإن اختلفت طرقنا في الممارسة.

حافظتً على الطفل بداخلي لسنوات كي أتقبل سخف الحياة، والآن مللت اللعب في غياب حبيبتي، ضياعها مني منحني كراهيةً للوجود لم يقدر الطفل على إخفائها، والاستمرار في هذا نوع من العبث.

ربما لو كانت معي لوجدتُ ما يستحق الخوف، والمتابعة.

كثيرٌ منكم ضاعت منه حبيبته، رغم ذلك لم يتوقف ولو حتى عن التظاهر بالحياة، لم يتوقف عن الكذب والخوف، وتلك حياة لا تُطاق، الرحمة تقتضي أن يتوقف العذاب، ولو عن طريق... القتل.

لا أتبين أصل الظل الذي تشكَّل الآن على الجدار خلفي.

أرى أنه يتابع كل كلمة أكتبها، حضوره ليس بالغريب فقد اعتدت هذا، الغريب هو ذلك الرضا الذي يشعرني به، أوجدَ في كلماتي خلاصًا من عذاباته؟

أم أنه يجيد إخفاء غضبه؟!!

- نعم تخلصتُ من ألمي، لذا أتيتك شاكرًا.

- لا أصدق هذه النبرة الناعمة، أشعر أنني لا أستحقها.

- ولماذا؟

- لأنني لم أفعل في حياتي ما يرضي الآخرين.

- بل فعلت أقصى ما يمكن أن يرضيني.

- ماذا تقصد؟ من أنت؟

- أنا قتيلك الذي لم يكن حيًا وقت فعلتها.

- قتيلي؟! لم أقتل، كان مجرد خطأ وتبيَّن لي بعدها حقيقة الأمر، صحبني الظل ورأيت بعيني.

- العيون تخدع يا صاحبي، وأنت أردت التصديق.

- هل تعني أنني... قتلتك؟!

- بالفعل.

- أنت تكذب، تريد إقناعي لغرضٍ ما في نفسك، أنا لا أعرفك حتى.

- لا أحد يستطيع الكذب بعد الموت.

- ليس هناك من يرغب في الموتِ مثلي، وأعتقد أنني سأثور لو أن

أحدهم قتلني دون أن يبدي أسبابه، ليس خوفًا من القتل، ولكن رغبةً مني في اختيار نهايتي الخاصة.

- وأنا كنت أضعف من أن أختار بنفسي، حققتها لي بغير معاناة وأنهيتَ ترددي.

- كنت ترغب بالموت حقًا؟!

- وأكثر منك، الخوف فقط هو ما كان يمنعني.

اعتقدتُ كما فعل الآخرون وهمَ مثاليتي في كل شيء، مكانةً مرموقةً، حب مَن حولي واحترامهم، زوجة بالغة الجمال، وولدًا سيبقيني بعد الموت، إلى أن عرفْت الحقيقة، تزوجتني ليأتي الحب من بعد المعاشرة، لكنه لم يأتِ أبدًا، حتى حصاد حبنا لم يكن كافيًا.

- كافيًا لأي شيء؟

- كافيًا لتنسى.

- تنسى؟!

- نعم. تنسى حبها الأول، في الساعات القليلة قبل النهاية تشاجرنا، ولم أستطع كبح جماح ثورتها، في تلك المرة صرخَت بالحقيقة في وجهي، الحقيقة التي أدركتها منذ اللحظة الأولى لإعلان خطبتنا وحاولتُ تجاهلها.

استخدمتني كبديل لحب قديم لم يمت، لا يهم كيف بدأ؟ المهم أنه لم يزل حيًا، الحقيقة أنها عاشت معي جسدًا مفرغًا من الروح، قتَلَتني قبل أن تفعلها أنتَ بساعات.

- تقصد...

- نعم. لم أكن سعيدًا كما بدا للجميع، كل المظاهر الخادعة التي مارسناها لمجرد الحفاظ على ماء الوجه أمام الآخرين لم تغير من الحقيقة.

- حتى وإن كنت قاتلك، ما الذي يدعوك لشكري؟

- عشت حائرًا بين تعاسة العيش بعشقها، وفراق ولدي، خيار صعب، مادمت حيًا سيكون أمر البعد صعبًا حدَّ الجحيم، أنت جربت العشق وتعلم ألمه، حين قتلتني تذكرت أنها تحب ولدي كما لم تحبني، ستبقى له، وهذا يكفي أن يكون خيارك الأفضل بالنسبة لحالتي.

- صدقني، لا علم لي بكل ما سقته، ولا أجد مبررًا لقتلك حتى بعد كلماتك.

- لا تخش شيئًا يا صديقي، سيظل الأمر سرًا بيننا، أما أنا فقد أنهيت سبب زيارتك، أتمنى لك النهاية التي أردتها، فأنت طيب وتستأهلها.

انصرفَ بعد أن فتحَ جرحًا في قلبي لا يقل في قسوته عن القديم.

لماذا؟ لماذا أقتله؟ ما هي الدوافع؟

الظلال لا تكذب فهل تغيرت عقيدتها من أجلي؟

يبدو أن كل شيء قد تغير بعد أن أغلقت بابي.

★★★

يقول الظل:

الشمس تؤذي، وأكثر ما يؤذيني أقدام الآخرين، أنا لست موجودًا بالأصلِ، وإنما أنا خلقٌ من بعض خيال الكاتب.

لم أرغب مطلقًا بالتواجد في قصة مثل هذه، ورغبتي لن تغير من الأمر شيئًا، لم يتساءل أحدكم إلى الآن لمن أنتمي؟

تدركون بعد كل ما حكاه (خالد) عدم انتمائي للقتيل، وتناسيتم السؤال.

هكذا هي الأطياف، تمر ولا تُبقي منها إلا أثر في المشاعر.

لا أهتم بلحظة الميلاد، ولا الرحم الذي انطلقت منه، الجميع يمتلكون مثلي ولكن بأشكالٍ مختلفة، ولغاياتٍ مختلفة.

من يجزم بأنني أتبع صاحبي في كل حين يغمره الضوء؟

هل هناك من تابعَ ظله حد التأكد؟

غياب المتابعة يساوي الظلام تمامًا، وأنا لا أتبع صاحبي في الظلام، سيتعلل البعض بأنهم كلما التفتوا إلى ظلهم في الضوء وجدوه، فماذا عن أغلب الأوقات التي يهملونه فيها؟

لا شيء مؤكد، وما من أحدٍ سيضيع عمره النهاري في إثبات نظرية تبدو تافهة مثل تبعية الظل لصاحبه، لا شيء مؤكد صدقوني.

ليس لنا ملامح لنثبت للجميع أنهم متشابهون، الابن يشبه أباه وإن كره، والأب يشبه جده وإن كره، نحاول التمرد والتجرد وتبقى وراثة الخلايا تعمل لتنحت وجوهًا، ومشاعرًا لا تجيد صناعة غيرها لأحد أصناف البشر.

لا أستطيع الخوف، وألا تخاف فهذا يعني أنك صرت مخيفًا، ولا أجد سببًا منطقيًا للخوف، ولا أعيب على الصغار.

البعض يظنني الجانب المظلم من الإنسان، ولست حزينًا لاعتقادهم، الحقيقة أنني انعكاسٌ لضميره، أنا من يخفي التشوهات حيث لا أشفُّ الملامح، أنا اللحظة الفاصلة بين الجنون وأقصاه، فليس بينكم عقلاء وإلا ما وصلت الأرض إلى ما آلت إليه.

الطوفان قريب، وما من أحدٍ قد صنع له فلكَ نجاة.

الظل طاقة من النور وسط الأضواء الخافتة، نحن عكس كل ما تعتقدونه وتوقنون به.

أعلم أنه بمجرد خروج الكلمات من فمي أفقد حالة الحياد المفترض أنني أمارسها مع النص، لكن من ذا الذي قال بأن الظل محايد ولو حتى في الواقع؟

لا شيء محايد أبدًا، الجمادات، الصمت، الكذب، التجاهل، والكتمان، ليس من بينها ما يمكن أن ندعوه بالمحايد.

الحياد صفة اخترعناها للتنصل من المسؤولية، أو لإخفاء الأثر، العجيب أنه ليس من بين البشر من لا يرغب في ترك أثره وإن ادعى حياده، تستطيعون مراجعة النقوش القديمة على الأحجار، والتأكد من الأمر.

كلٌ ودَّ لو تركَ ما يثبت وجوده.

ولا أعرف، هل هذا هو السر في احتفاظ (خالد) بالسكين حتى الآن؟

الوجود على قيد الحياة يمنحنا تأثيرًا موجبًا أو سالبًا بالنسبة للآخرين، وأعتقد أن النجاح يتلخص في خروج المعادلة النهائية بنتيجة الصفر.

يعتبرونني مجرد رفيقٍ صامتٍ، رغم أن جميعهم ينسون محاولة الحديث مع ظلالهم، الأمر رائع خاصةً إن أجاب الظل، عندها يبدأ الجنون، وهذا ما حدث مع (خالد).

أنا من يؤجل النهايات لتكملوا الحكاية، وكان (خالد) على شفا حفرة من قتل نفسه، منحته كلامًا، حكايةً، حافظت على المسافة بينه وبين رغبته في الموت لتستمتعوا، ولأمنحكم بعض الورقات الإضافية.

أخذته إلى عالم الخيال الرائع، حررت روحه حين حققت أمنيته، رغم علمي أن الأرض قد غرقت في الدماء، واغتسلت بالموت.

ألهيته حتى لا يمل الانتظار، ربما كلفه ذلك هدم كل ما بناه.

وسأظل ألهيه إلى أن يحصل على المشهد الأخير الذي يستحقه.

لو أنني حمَّلتُ قصتي جملًا إضافيةً لزاحمته البطولة، ولربما حملت الحكاية كلها اسمي.

لكني لا أحتاج خلودًا وهميًا على ورقة سميكة. الحياة بعيدًا عن اهتمامات الناس نعمة لا يدركها إلا القليل.

أراد (خالد) بقعةً طاهرة منذ نعومة أظافره، أرضًا في نقاء هواء ما قبل إشعال الحروب، ما قبل ظهور الإنسان، منحته إياها، لم يكن مستعدًا لحظتها لميتة تليق، ذلك سر اختياري توقيت الظهور. وكما أفعل دائمًا، أمنح أبسط الأشياء تلك الهالة الأسطورية، أمنحها الإجابات، الحماسة، والقدرة على التحقق، سأفعلها حين يكتفي ويصير مستعدًا.

تخيلوا معي الأمر، في كل مرة يستدعي الكاتب الظلام ويغلق عينيه ليهبط الوحي، ثم يستعيدني ليبدأ في التسجيل. لا أحد يكتب في الظلام.

هل يعني هذا شيئًا بالنسبة لكم؟

قد يشكك البعض في علاقتي بالهبوط، أما التسجيل فلن يتحقق بغير وجودي.

سأكون أنا من يصنع أسطورة البطل الخاصة، أسطورة النهاية.

★★★

(١١)

الحلاق وواحدة

كلمات الظل السابقة عن الأطياف ذكرتني بأحدهم، ذلك الحلاق الذي اعتدت تجميله لمظهري أسبوعيًا، ولفترة من الزمن، هو الوحيد الذي دخلَ شقتي أكثر من مرة بعد رحيل الآخرين، لم أنسه لمجرد أنه حلاق، ولا لأنه لم يترك ظله عندي، إنما هو انشغال المرء بحكايته.

كان قليل الكلام، وهو سبب وجيه لاحتفاظي به ورفضي لغيره، سبب جيد لتقليل الخوف.

في أحد الأسابيع انتظرته ولم يأتِ، كانت مرته الأولى التي يخلف موعدي فيها، حتى إني فتحت النافذة بحثًا عن سبب، السماء تهطل، وزحامٌ يطارد طفلًا صغيرًا من أطفال الشارع حتى الموت، الطفل الوحيد الذي أدخلته عالمي.

لم أشعر بموته، ولا خوفه من البرد، فأنا أمنحه من المال في كل مرةٍ ما لا يمنعه بردٌ أو حر، لا بد أن شيئًا قد حدث، شيئًا تأثيره أقوى من المال نفسه.

كعادتي أزحته عن بالي وتوقفت عن السؤال.

سمعت صوت طرقاتٍ على الباب بعدها بأيامٍ، عرفت على الفور أنها للحلاق، فقد اتفقنا من قبل على طرقاتٍ محددة، للمرة الأولى لا يراعي عزلتي، عندما فتحت له الباب شيء ما دعاني للنظر في عينيه مباشرةً، ولم أكن قد فعلتها من قبل إلا مع ولد المقهى.

لم يشبه عادته أبدًا، فالدمع يغير رسم الملامح.

دعوته للداخل لأني أحتاجه، ظل يتنحنح طيلة فترة تجميله لمظهري، ورغم أن الفضول لم يقاتلني يومًا سألته:

- ماذا بك؟

أجابني بصوتٍ يكاد البكاء يخنقه:

- آسف لأني تأخرت.

- لم أسألك عما يخصني، فقط ماذا بك؟

توقف عن عمله واستأذن الجلوس على الأريكة، أحسست بقدميه ترتعدان فسمحت له.

عرفت وقتها أن هناك أشياء لا يمكن البوح بها وقوفًا، قال باكيًا:

- في الموعد السابق كنت في الطريق إليك، لمحت إحداهن على الجانب الآخر من الطريق، لم أدرِ لمَ نظرت في عينيها، رغم بعد المسافة أحسستها قريبة، قريبة جدًا، وحزينة جدًا.

كانت جميلة للدرجة التي أوقفتني لتأملها، راهنت نفسي بعد أن تلاقت عينانا أنها ستعبر إلى ناحيتي، وليتني خسرت الرهان.

عبرَت متعلقةً بعيني وأهملَت الطريق، صدمتها سيارة مجنونة.

- ماتت؟!

- ليس تمامًا، جريت إليها، تلقفتها من الأرض، وهرولت بها في كل اتجاه، شعرت بالحياة لم تزل فيها، ولم يستقبلها أى مكان، بعد فترة استقبلها المستشفى المركزي، سألوني عـن بياناتها فعجـزت عن الإجابة.

فتشوا ملابسها بحثًا عما يدل علي شخصها ولم يجدوا، خفت أن أنتحل دور القريب، فيظهر أهلها ويكذبوني، حكيت لهم كل شيء بالتفصيل، ثلاثة أيامٍ في الرعاية الفائقة ولم تستعد وعيها، أحد الأطباء أخبرني أن الأمر سيء جدًا، وقد ترقد في غيبوبتها لفترة طويلة، هذا إن كُتب لها النجاة، ثلاثة أيامٍ واقفٌ على قدمي، فشلت في مجرد رؤيتها من بعيد.

لست قريبها، ولا أعرف عنها أي شيء.

أعلم أن اليوم غير مناسب لزيارتي، لكني وبعد تفكير طويل قررت المجيء، أنت طبيب وتستطيع مساعدتي، وهذا هو السبب الحقيقي الذي ساقني إلى هنا.

هذه المرة أنا من يحتاج المساعدة، هل تساعدني؟

عجيبٌ أنني تركته يحكي رغم أن الأمر لا يتعلق بي، ذلك ليس من طباعي، الأعجب أنه برغم معرفته بتلك الطباع أكمل حكايته، بل وتجاوزها إلى أبعد من ذلك، إلى الدرجة التي تمكَّن معها من طلب المساعدة، لا بد أنه حاولَ كثيرًا قبل اللجوء إليَّ، فتَّش في كل شبرٍ عرفه،

وفي صندوق معارفه عن معين، شعرت بمعاناته، تلك المعاناة التي دفعته جبرًا لسؤال آخر مخلوق في الدنيا قد يهتم.

- أحببتها؟

أطرق برأسه ليهرب من سؤالي

- كانت جميلة؟

أومأ برأسه في براءة العشاق.

- إذًا ستراها.

لست ممن يُعتمد عليهم أبدًا وأنتم تعلمون الأسباب، لكني في تلك المرة، وربما الوحيدة فعلتها بكل ما أوتيت من إصرار، سيراها وإن كلفني الأمر الانغماس بين البشر، قدمت له شرابًا، وأحب الشراب من يدي.

وجودها بنفس المستشفى الذي انتقلت له، ووجود (كرم) إلى جواري سهَّل من مهمتي كثيرًا.

لم يسمحوا له بالدخول وقت الزيارات فحسب، بل وصار ملاكها الحارس، العجيب أن أحدًا لم يسأل عن الفتاة مطلقًا، ربما سقطت من جيب الحياة ليتلقفها ذلك البسيط، ويبدأ معاناته.

تكررت زياراته لها يوميًا، وتكررت حكاياته عنها في شقتي، ما جعلني أهدده أكثر من مرة ولكن على سبيل المزاح.

- إنها تزورني في الأحلام، تحب العصافير، الغناء، وحلوى الأطفال، إنها أجمل من المرض بكثير، خيالها يتشكَّل على الحائط في يقظتي، ويخبرني بكل شيء.

بعد فترة أخبرني أنه قد اتفق مع ظلها على الزواج، ووافقت في حلمه.

- يقول الأطباء أن أمامها أعوامًا لتعود.

- سأنتظرها. فقط أرجو ألا تخيب أملي.

- في ماذا؟

- أحضرتُ خاتم الزواج، وأريد أن أهديه لها.

- أنت مجنون.

- بالفعل سأجن إن لم أفعل.

انتصر جنونه بعد هنيهة من التفكير:

- لكن بشرط، لا يمكنك وضع خاتمك في إصبعها وهي تحت الأجهزة الطبية، هذا سيقتلها.

- فقط سأريه لها من بعيد، وسأرى فرحتها في الحلم.

عندما وقفنا أمام سريرها، شعرت بقدسية الموقف، ركع على ركبتيه وأظهر خاتمه، لم تكن تشبه حبيبتي، لكنه يشبهني تمامًا.

أحسست أنه يتوجب على الموت تجاهل تلك الحجرة.

لمحت وجهها، بدت موافقة تمامًا.

ما بين البوح والكتمان درجة هي أرقى درجات الحب، أن يدرك الحبيب حبك من دون كلمات، هذا ما فشلت فيه واستطاع الحلاق أن يحققه.

في الأسبوع التالي لم يحضر الحلاق، ولا الذي بعده، أخبروني بأنه

توقف عن زيارة حبيبته، ذهبت إلى مكان عمله وسألت، أخبروني أن قلبه توقف فجأة عن العمل، عشق بدرجة لـــم يحتملها قلبه فانفجر وسقط قتيلًا.

قد لا تدركون شعوري لحظتها، كل ما دار بخلدي أن أذهب إليها.

وقفت أمامها، تأملت ملامحها بتدقيقٍ للمرة الأولى، لم يكن يهمني أن تشبه حبيبتي أو لا تشبهها.

لم أقدر على منع نفسي من إخبارها:

- لقد مات حبيبكِ، فقد روحه ولا أملك له صورة.

كان لا بد وأن ترحل إليه سريعًا، ذلك هو العدل المطلق، تحسست تلك الأنابيب الرقيقة التى تحافظ على بقية الروح فيها، لا بد أن أنتزعها لترحل إليه، شعرت ببكائها حتى وإن لم تُظهره، البكاء لا يحتاج الدموع دائمًا، كانت تريد الرحيل وبشدةٍ.

قبل أن أنزع أول أنبوبٍ أعلن رسام القلب رحيلها، سبقت جملتي فعلي، وسبقتني هي إليه.

ناديت الأطباء فهرعوا إلى الحجرة، سبقني الموت بلحظةٍ.

سألوني:

- من سيتسلم جثتها؟

أجبت في شرود :

- حبيبها الذي مات.

★★★

بدأت أشفق على (خالد).. أحيانًا يلومني ضميري لأنني تعمدت تشويهه عند الخلق، لكن هذا ليس حقيقيًا على الإطلاق، أنا حتى لم أكن أعرف له اسمًا وقت البدء، منحته ما يحتاجه الإنسان الطبيعي الصحيح، الأسرة، المال، وحُسن المظهر، أصلحت عاداته، فهو لا يدخن، ولا يحب الكحول، لم أجعله شرهًا لأي شيء، لا للأكل، ولا للجنس.

شيء وحيد هو كل ما أخذته منه... حبيبته.

هل يستدعي ذلك كل ما فعله؟!

إنه يبالغ ويحمِّل الأمر أكثر مما يحتمل، أنا فقدتً حبيبتي ولم أقتل، فلماذا؟

أعلم أن خيالي هو بعض عالمي، عالمٌ كهذا لن يفرز بشرًا أسوياء أبدًا، وقد سوَّيته على ما تخيَّلت.

الغريب أنني لم أستطع كراهيته مع كل خطاياه، والأغرب أنني ربما تعاطفت معه، أحببته، بل ولم أحب أحدًا من مخلوقاتي بمثل هذا القدر أبدًا.

كنتُ قد وصلت بالحكاية إلى حد اللاعودة حين فقدت قدرتي على تجميل أفعاله، خرج مني بحالته وأصر أن يكونها، اضطررت لقبوله كما هو بعد أن يئست، اعتقدت أن اليدَ العليا لي في هذا النص، وللأمانة أجبرته على سرد أحداثٍ كاذبة، كتبها مرغمًا، وبقراءة ثانية سريعة لكل ما كتبه تستطيعون إدراك تلك الحالة من المراوغة، حالة عدم الرضا الظاهرة، أجزاء كثيرة أجبرته عليها ولم يحبها، سرَّب حالة القلق التي تظهر في حكايتي وتكاد تفسدها، شعرتُ بتمرده وتجاهلته، أجبرني أن

أتخيل كل ما فيه، ملامحه التي أنهكها المرض، تلك التي تؤذيني كلما جالت بخاطري، حالة اللامبالاة التي زرعتها بنفسه، وذلك الغل الذي احتلَّ روحه، قلبه الذي لم يتوقف عن العمل حتى وسط بركة الدماء التي صنعتها بمحض إرادتي.

لم يعد يشبه الذي عرفته عند استحضاره، لم يعد يشبه خيالي، صار يزور أحلامي بكثرة، لا يشبهني في ملامحه، أو تكوينه.

أنا حتى لا أتحدث بطريقته أبدًا.

في المرة الأولى خفته، المرة الأولى دائمًا مخيفة، خاصة إذا تعلق الأمر بلقاء مجنون.

كررها ولم يحمل في يده ما يوحي بعشقه للقتل، مرةً بعد مرةٍ ذاب جدار الصمت بيننا، تحدثنا في ما يخصه، وأصرَّ على ما يخصني.

اعتدت ضغطه على جرحي، واعتاد ضغطي على جراحه.

بدا الأمر مقبولًا إلى أن جاء يوم كنت بحاجة للحديث مع أي واحدٍ ولو عن طريق جنون محتمل، لم أجد غيره أمامي، تشكَّلَ أمام عيني على الحائط، كان حقيقيًا لا تنقصه أيًا من مفردات الحياة، يمكنني وصف أدق تفاصيله، بدايةً من تصوير خِلقته، وحتى رائحته التي لن أخطئها إن صار لحمًا ودمًا حقيقيين.

أشعر أن جنونه يتسلل إلى داخلي، أتمنى ألا يستمر بعد الخاتمة، وإلا... سأقتل نفسي بالتأكيد.

أردت سؤاله بشدةٍ، وتشكَّل مانحًا إياي الفرصة.

- ألم تندم على أي من أخطائك السابقة؟
- حياة كلٍ منا تبدأ بنقطة، وتنتهي بأخرى، ما بين الأولى والأخيرة سلسلة من الأخطاء تُشكِّل للإنسان حياته.

نحن مجموعة من الأخطاء، لذا من العبث أن يندم الواحد منا على خطأٍ لو لم يرتكبه لارتكبَ غيره، هذا فقط لتستمر الحياة.

- لكن الخطأ درجات، فلا يمكن أن نعتبر القتل درجة عادية من الخطأ، الأمر لا يشبه دهسّ قطة بسيارتك في الطريق السريع.
- ومن قال بأنني قاتل؟! ولكن لنتخذ القتل مثالًا، واسمع كلماتي جيدًا

(يتوجب على الإنسان أن يقْتُل، كي لا يقْتُل)..

لتمتنع عن شيء لا بد أن تعرفه، ولتعرفه لا بد أن تجربه.

- لا يتوجَّبُ عليَّ أن أحترق بالنار لأعرف أنها تحرق.

- ومن منا لم يحترق بها؟ مادامت موجودة أمامك فستحرقك ولو تأخر الأمر قليلًا.

- ما أعرفه الآن هو ذلك الجانب الذي جئت بك منه إلى قصتي، جنوني الذي طاوعته من قبل، وخيالي الذي بدأ يمرض ليمنحني واحدًا يجادلني، ويحدثني بما لا أفهمه.

- سأحاول تبسيط الأمر، انظر حولك جيدًا، على الأقل انتبه لتلفازك الذي يعمل طول الوقت، العالم يتغير الآن كما هو على الدوام، هل تمتلك الجرأة لتخبرني عن الشيء المشترك بين كل التغييرات؟

- أعتقد أنه... الموت.
- ليس الموت، بل هو القتل. الموت لا يغير شيئًا، القتل وحده يفعلها، ليتني قتلت فأشارك في تغيير الدنيا، أمنح البعضَ حزنًا حتى الموت، والبعض الآخر راحةً حدَّ النسيان، أغيِّر أسلوب حياةٍ ربما للأفضل، وربما للأسوأ.

أما في حالتي، ما الذي سوف يتغير؟

لا شيء، ستبقى الدنيا على حالها، إلى أن يأتي من يلقي بحجره في بركتها الراكدة.

هل تعلم السبب؟

لأنني اخترت الموت من دون قتل.

سأتعفن في مكاني، أنت حتى لم تمنحني جيرانًا يهتمون لأمري، ويوارون سوأتي، قد يرسل البقال تابعه، سيعود إليه بعد ضغطةٍ واحدة على الجرس، ونصف دقيقة لا أكثر من الانتظار، سيخبره أنني لست موجودًا، ولو فرضنا أن قلبه يعمل وتذكَّر أمر غيابي، في المرة الثانية سيعلن عدمَ وجودي للنهاية.

- أنت تراوغ، وتفسد قصتي، لماذا اخترت تلك الميتة البشعة؟ أنا أمتلك بديلًا آخر غير الموت.
- صدقني ليس هناك أيةَ بدائل أخرى، الأمر يجري في اتجاهٍ واحدٍ فقط، ذلك الذي أعلنته بخطك.

أرجوك، امنحني هذه المرة الموت الذي أريده، لا أريد أن أفلت.

- وإن أفلتَّ، فلتعلم أن من يفلت من موتٍ محققٍ فقد اقترب أجله.

لا تلتفت لسخافات الآخرين، أن أمدَّ في عمرك قليلًا لا يعني الخلود، فلربما تخليت عنك في ما هو قادم.

الكل ينبهر بالشذوذ عن القاعدة، يبالغون في انبهارهم حتي يصير هو القاعدة.

يضحك ساخرًا:

- أنت تردد كلامي أنا وليس كلامك، أتمنى ألا تقتل نفسكَ بعد الانتهاء.

- ومن يعلم؟ فالحياة لا تروقني أيضًا.

- حياتنا تشبهنا تمامًا.

- لكني لست بمثل هذا السوء.

- إذًا ربما أنها أيضًا ليست بمثل هذا السوء، فلتكن حياتك كما تراها، ولكن دعني أنهي حياتي على النحو الذي يرضيني.

- ولماذا هذه القسوة؟ يمكنني نزعُ المرضَ من رئتيك، يمكنني منحك ما يبرر جنونك ومرضكَ النفسي، وربما أطهرك من خطاياك.

- لست دنسًا لتطهرني، ولن أسمحَ بغير النهاية التي آمنت بها، فمنذ خلقتني...

- لن تسمح؟! أنا الذي يسمح أو لا يسمح، هل جننت؟

- أنت الذي نسيت، فقد خلقتني بجنوني، وأنا الذي لن يسمح، ليس هناك من لا يدرك جزءًا من الحقيقة الآن، ولو لم تفعلها لأرغمتكَ على فعلها، يكفي فقط أن أمنحهم بعضَ التفاصيل الغائبة في

الأجزاء التالية.

- التفاصيل ستتذكرها بأمري، أما النهاية فهي اختياري.

- لن تقدر.

- بل سأفعل، أنا وحدي من يحدد.

هذا ليس حوارًا بين الشخص ونفسه أبدًا، منحته أكثر مما يجب، والآن أجني ثمرة عطائي.

لن يجبرني أحدٌ على تغيير الخاتمة التي رسمت ملامحها منذ البداية، حتى وإن امتلك ذلك المجنون نهايةً أكثر تشويقًا.

يبدو أنني أعاني أكثر من أي مرةٍ، لو كان الأمر بيدي لاستبدلته نهائيًا، لكني ما زلت أحتاجه، لم يزل على لسانه أجزاءً لم يقلها، ما زال موجودًا.

أتمنى... يجب أن أُنهي الأمر بإرادتي.

★★★

(١٢)

خارج زمن الحكي

يأخذني (خالد) إلى ذكرياتي القديمة مع كل حكاية منه، كل جديدٍ يبهرني، حتى وإن لم يكن رائعًا، المهم أن عيني لم تقع عليه من قبل، إنها أزمة الملل والاعتياد.

حصلت على الدرجات النهائية في شهادة الإعدادية، واختاروني ضمن المتفوقين لرحلة الوزارة إلى سيناء، الأرض المقدسة، بالطبع لا تتخيلون قدر سعادتي حين لم يمانع أبي، كمن تحصّل على تصريح سفر إلى الجنة، كنا في طريقنا إلى مدينة الطور، وكنت قد حفظت جزءًا غير يسير من القرآن (وطور سنين).. تعرفون ماذا تمثل أرضٌ عرفها طفل من كتابه المقدس.

تجهَّزت للبكاء، فجميعهم يقولون أن الأماكن المقدسة تنفذ إلى الروح، وليس أقدس من المكان الذي تكلم فيه الإله مع رسوله.

كذّبتهم حين أعلنوا أننا في قلب مدينة الطور، لم يستطع الواقع مجاراة الخيال عندي، لا شيء بتلك الأرض يجاوز خيالاتي عن الصحراء، أشاروا إلى الجبل وقالوا: جبل (سانت كاترين).

كنت ممن يتوقون لارتقائه ليس رؤيةً للأرض من فـــوق ولا تعاليًـــا

عليها، وإنما لرؤية السماء عن قرب.

صعدوا، وصعدت إلى أعلى نقطة فيه، بحثت وبحثت في السماء عن أي منفذٍ لله يحدثني منه، لستُ نبيًا لكني أحب الله، آمنت أن السماء قد رُتقت بعد مرتها الأولى ولن تُفتح من جديد، وأعتقد أنه سبب مقنع لفساد ما تحتها الآن، لم يعد بالسماء أي ثقوب. بعد أن تعبت من المعاينة، التفتُّ إلى الأرض ككل من صعدوا معي، مر القليل من الوقت والجهد حتى وجدت ضالتي، بقعة صخرية ملساء، تشذ عن اللوحة الكلية، وجدت تفسيرًا يناسب طفولتي، لقد سقطت من أعلى، فهي أرضٌ غير الأرض، والسماء بدت في عيني ملساء وقتها، أكيدٌ أنها المنفذ إلى الرب حيث صقلها بيده.

تركتهم بالأعلى يلهون ونزلت إليها، اقتربت منها في حذرٍ، خشيت أن أطأها ولم أعرف السبب.

كانت عجوزٌ وحيدة تسكن خيمةً بالقرب منها، تصنع الخبزَ البدوي للراغبين في تجريبه، هو نوع من السياحة (الفلكلورية).. ومعاشٌ لها أيضًا وسط ذلك التيه.

تأملتها من بعيد، طاعنةٌ في السن وكأن الموت جرَّبها فلم تستجب له، مرات ومرات عاندته حتى تناساها.

خفت الاقتراب وحدي فانتظرت حتى نزل الجميع، ذهبنا إليها وتناولنا ما تيسر من خبزها، انصرفوا واستأذنت في البقاء قليلًا، الوقت سمحَ بالانتظار.

كنت على يقين أنها تعرف عن الأرض شيئًا، القرب نصف المعرفة، وقد كانت قريبة جدًا، سألتها من دون مقدمات: هل تعرفين سرَّ البقعة الصخرية هذه؟

زرَّت عينيها، وكرمشت وجهها حتى ضاعت الملامح.

أشارت لي أن أقترب منها أكثر، كانت رائحتها تشبه رائحة رمال الصحراء المختلطة بعجين الخبز. أراحت وجهها فظهرت شمس زرقاء في ذقنها الموشوم.

قالت وهي تسلط عينيها السوداوين على وجهي: مالكَ وهذه البقعة؟

غالَبْتُ حالة الخوف التي انتابتني إثر سؤالها: فقط أسأل.

أزاحت قسوة الملامح الأولى: لأول مرة يسألني أحدٌ عنها، رغم أنها أكثر ما يستحق السؤال هنا، لكن القصة تحتاج إلى وقت. فهل تملكه؟

قلت متلهفًا: لديَّ حتي المغيب، لن يعودوا قبله.

ارتاحت في جلستها مستعدةً للحكي: اسمع يا ولدي، لتلك البقعة حكايتان، الأولى تبدأ من عند (موسى) النبي.

عندما عبرَ وبنو إسرائيل البحر استقروا هنا، في هذه الأرض، وحول هذه الخيمة بالتحديد، عند الصخرة نزلَ أمر الله لنبيه بقتال جبابرة (فلسطين).. انقسم القوم إلى قسمين، الأول سنَّ سيوفه على هذه الصخرة استعدادًا للحرب، وأغلبهم سنوا سيوفهم بعدها لقتل أنفسهم، تكفيرًا عن عصيانهم لأمر الله.

لم تكن الأرض بهذه الملاسة أبدًا لكن عدد السيوف كان كبيرًا، كبيرًا جدًا، لذا يسميها البعض صخرة (موسى).

رغم قصتها التي وجدت صدى بعقلي الصغير سألتها في شوقٍ: والحكاية الثانية يا خالة؟

ابتسمت للمرة الأولى ربما في حياتها، تابعَت: الثانية أطول، في عصـرٍ

أقدمُ قليلًا من عصر (موسى) النبي، عاشت قبيلةٌ لم تترك وراءها اسمًا بالقــــرب مــــن هنا، ولــم تكن هـــذه البقعة بهيئتها أبدًا، كــانت مشققةٌ وشديدة الخصوبة.

كان لتلك القبيلة عاداتها الخاصة، فالبنت تتزوج من أخيها فقط.

قلت مستغربًا: أخيها؟!

- نعم من أخيها، ويبدو أن ذلك هو السبب في أنهم لم يعمروا طويلًا.

وكان لهذه البقعة طبيعة سحرية، فهي أخصب من أي بقعة فوق الأرض، تمامًا كما هو حال أهل القبيلة، رجالًا ونساءً.

أشارت إلى المساحات الشاسعة حولها بإصبعها المتآكل وقالت: هل ترى كل هذه الصحراء؟ لم يكن بها من الرمال قدر ما بها من الورود.

زرعوها حتى تلونت السماء من فوقهم بألوان زاهية، واختفى لون البحر، كانوا يروون شتلات الورد في هذه البقعة لتنبت في ساعات قليلة وتزهر، ينقلونها بعد ذلك إلى الأرض فتعيش طويلًا.

كل ألوان الورود تتشكل بالماء، إلا لونًا واحدًا.

قلت في براءةٍ: اللون الأحمر.

قالت في دهشةٍ: هل تعرف القصة؟

قلت مرتبكًا: لا وأقسم، فقط أفلتت مني الكلمة.

تابعَت حذرةً: نعم إنه اللون الأحمر، فقد كان يروى بالدم فقط. ظهرت آيات الخوف على وجهي الطفولي.

- لا تتعجل الأمور يا صغير، فالدم الذي يروي الورود ليس دم الموت، بل دم الحياة.

كما ذكرت لك كان لتلك القبيلة عادتها في الزواج، وهو مقدسٌ عندهم لا ينقطع، ولا يتكرر، وكان نادرًا أن يعزب أحدهم، أو إحداهن حتى الموت، وإن حدثَ فعليه وعليها الانصياع لأمر الله والقبيلة، أو الرحيل وقطع النسب، وهذه إحدى الخطايا الثلاث المُهلكة.

- خطايا ثلاث؟!

- نعم. لكل زمان خطاياه التي يهلك بتحققها المكان.

الكذب، القتل، وهجران القبيلة، ثلاث خطايا مهلكة، إذا ما تحققت جميعها في أسرة واحدةٍ، هلكَ الجميع.

هذا هو عهدهم مع الله حين سألوه، أقسموا ألا يسألونه شيئًا آخرَ، وقد حافظوا على العهد قدرَ المستطاع.

- وهل تحققت؟

تجاهلَت سؤالي لسذاجته وأكملَت: كان لتلك القبيلة زعيمها القوي، على يديه قويت شوكتهم، وزاد خيرهم وعددهم، مُنحَ كل شيء، القوة، والعظمة، وطلاقة اللسان، شيئًا واحدًا لم يُمنحه وهو الأبناء.

طعن في السن وزوجته، كان قومه ينظرون في عينيه مع كل مراسمٍ للزواج، حيث تروي الأنثى شتلةً زرَعها الذكر مسبقًا في البقعة الصخرية بنقطةٍ من دمها، ساعةً هي كل الوقت حتى تنبت وتزهر باللون الأحمر القاتم، ثم يُعلَن الزواج.

في إحدى الليالي خالفَ الزعيم عهد القبيلة، وسألَ ربه سرًا من فوق

البقعة أن يمنحه الذكور، ويأخذ منه أيَ شيء، يبدو أن الطرف الأعلى قبـل العقـد، فما إن وصـلَ خيمته حتى سمـــع صوت زغاريدٍ تُعلنُ أن زوجته قد حبلَت، أضاءت روحه بنعمة ربه، وحلت البهجة في كل الربوع.

بعدها بشهورٍ خرجت المولِّدة من الخيمة، وعلى وجهها آيات الخوف والفزع.

انتظرَ تلك اللحظة طيلة عمره، وخشى أن تفسدها ملامح المولِّدة فتجاهلها، عندما دخلَ الخيمة، ونظر إلى نبتته عرفَ سر خوفها.

رزقهُ الله بذكرين في بطن واحدة، الأول قدماه طويلتان جدًا، والثاني بدون قدمين تقريبًا.

لم يعترض ورضي، كان يعرف بنود العقد جيدًا، له الذكور، ولله ما أراد، منحَ الأول اسم (نات) نسبةً للسماء، والثاني اسم (آرت) نسبةً للأرض.

بعدها بعامين ذهبَ إلى البقعة وخالف العهدَ مرةً ثانيةً، دعا ربه أن يرزقه الإناث من أجل ولديه، ويأخذ أي شيء، وصلَ إلى خيمته تستقبله الزغاريد والتهاني، وعاد الفرح.

بعدها بشهورٍ وضعَت زوجته ابنةً واحدةً بها كل جمال الدنيا، جمال المرأة الأولى، في تلك المرة أخذَ الله ما أراده، أخذَ زوجته.

لم يعترض أيضًا ورضي، منحَ ابنته اسمَ (نفرو).

مرت الأعوام و(نات) يرتفع حتى بلغ طوله عند الرابعة عشرة أكثر من ثلاثة أمتار، ولم يبدُ أنه سيتوقف أبدًا، بينما (آرت) يُقاس طوله بالأشبار فقط حيث قدماه لم تنبتا.

اعتاد (نات) منذ الصغر حملَ أخاه (آرت) فوق ظهره عند الخروج، يطوف به الدنيا، ويريه إياها من أعلى، كانا يستهلكان الحديث كله أثناء السير، لا يبقيان منه شيئًا لما بعد لذا نسيا ملاقاة الأعين، لم يتجنبا اللقاء، لكن الكلام كان يفرغ دائمًا عند باب الخيمة.

واعتنت به (نفرو) في الداخل، كانت دائمًا أمام عينيه، بدت الحياة طبيعية لثلاثة أطفال، وكعادة الحياة تتغير بمر السنين.

وصلَ ثلاثتهم إلى سن البلوغ والزواج، صار على (نفرو) أن تتخذ لها زوجًا من بين اثنين (نات) و(آرت).. ما استوجبَ على الأخوين زرعَ شتلةٍ لكل منهما في البقعة المباركة، تلك عادة الاختيار.

- الاختيار؟!

- نعم الاختيار، ثلاثة طقوس حسب الحالة، إذا خُيِّرت المرأة، يزرع الذكور وتروي الأنثى من دمها قطرة للشتلة، الأسرع في النمو تكون للمختار، وإذا خُيِّر الذكر، تزرع الإناث ويروي هو من دمه، إذا لم يكن هناك خيار، يزرع الاثنان، ويرويان دون انتظار.

إنها طقوسهم وعاداتهم.

- وماذا حدثَ بعد ذلك؟

- أسرَّت (نفرو) إلى (آرت) برغبتها في الزواج منه هو، قالت أنها لم ترَ غير عينيه، رفضَ (آرت) الأمر، فقد رأى في نفسهِ عجزًا، وعدم اكتمالٍ، وفي عينيها شفقةً لن يحتملها إذا ما تمَّ الزواج.

قال لها: (لن تنبت شتلتي أبدًا).

في صباح يوم الزواج، حملَ (نات) أخاه فوق ظهره، خرجا ينتقيان شتلةً لكل منهما، أخبرَ (آرت) أخاه بعدم رغبته في الزواج لأنه لا يحب أخته، لم يكن قد رأى عيني أخيه من قبل، لكنه شعرَ برجفة جسده حين أخبره أن شتلته لن تنبت أبدًا، هو لن يضعها في المكان المحدد.

بالفعل غرس (نات) شتلته، ولم يفعل (آرت).

عند المغيب اجتمعت القبيلة للقيام بطقس الري، روت (نفرو) المكانين، نقطة دم لواحدةٍ، ونقطة للأخرى.

أشعلوا نارهم ورقصوا انتظارًا للإنبات، بعد ساعات قليلة من

المرح، ذهبوا ليستكشفوا الوردتين، وجدوا تلك التي لـ(نات) قد أنبتت، أما الأخرى فقد صارت أكثر إنباتًا.

للمرة الأولى أدركَ (نات) وجع الكذب، لا بد أن أخاه قد زحفَ إلى الأرض، وزرعَ شتلته في الخفاء.

بكى (نات) الذي كُتبت عليه العذرية الدائمة، وضاعت حبيبته، حتى إن السماء بكت له وعليه.

في خيمة الزواج اتخذَ (آرت) ركنًا واعتزلَ (نفرو).. أخبرها بأنه لم يغرس، فكيف أنبت ركنه؟

أجابته أنها هي التي غرست، وروَت له أكثر من (نات).

كان يعلم أثرَ فعلتها في أخيه، سيعتقد أنه كاذب، سيكرهه بعد أن رعاه عمرًا، بعد أن أحبه، حاولت (نفرو) قدر طاقتها أن تُظهر له مدى حبها، فرفض حبَ الشفقة منها، (العشق ليس له أسباب) هكذا أخبرته،

أجهضَ كل محاولاتها، وظل في جانبه لم يمسسها.

ليلة وأخرى من دون مساس حتى فقدت (نفرو) الأمل.

خرجت في الليلة الثالثة وقد حسمت أمرها، إن كانت قدماها تمنعانه عنها فستقطعهما، لا بد أن تهدم الحاجز بينهما، ولو عن طريق الدم.

توجهَت إلى البقعة الصخرية، أمسكت السكين وقبل أن تنتهي من القدمِ الأولى ماتت، لم تتحمل كم الدماء التي شربتها الأرض، تحولت الورود إلى اللون الأحمر الدامي في لحظة، رأى (نات) كل ما جرى من بعيد، كان أبعد من أن يمنعها، حين وصلَ وجدها ميتة، حملَ السكين وحملها بين ذراعيه، توجهَ بها إلى خيمة أخيه، وجده منزويًا ومرسلًا بصره إلى السماء أمامها، مددها على الأرض أمام عينيه برفق.

قال في وهن: ماتت وهي تحاول قطعَ قدميها.

لم يتحرك في عيني (آرت) سوى الدمع، صرخَ فيه (نات): أنت كاذب، كذبتَ عليّ حين قلت أنك لن تغرس، وغرست، قلت لا تريدها، وخدعتني للوصول إليها، هل هو طلبك أن تساويك بقطع قدمها؟ لماذا كذبت؟ لماذا قتلتها؟

أرني عينيك اللتين تحملان كل هذا القدر من الكذب والخداع، لم يدفع (آرت) أيًا من اتهامات أخيه حتى جن جنون الأخ، أدار رأس (آرت) عنوةً فتقابلت العيون للمرة الأولى، رأى كل منهما ماذا فعلَ العشق بالآخرِ، فخرسَ الكلام كله.

قال (آرت): الآن، وبعد أن رأيت عيني، هل كنتُ أكذب؟

نبتَ الصدق في طين عينيه، ما دعا (نات) إلى النهوض من أمامه.

قال في جديةٍ: شيء فيهما لا أفهمه، ولا أريد فهمه، سأرحل عن هنا، لن أبقى في مكان يحمل ريحها، أو ريحك.

ألقى بالسكين أمامه، امتلكَ نفس صدق أخيه عندما قالها، قرب الفجر غادرَ، وهجَرَ القبيلة.

أصبحَ (آرت) هو الوحيد القادر على دفعِ نبوءة الهلاك عن قومه،

وهو الوحيد القادر على تحقيقها، وكعاشقٍ ذبيح قرر أن يُهلك الجميع.

زحفَ حتى وصل بقعة الأرض في الليل التالي، طعنَ نفسه في موضع القلب تمامًا، بنفس السكين الذي قتلَ (نفرو).. جرى دمه بين شقوق الصخر، ملأها من بعد حبيبته، كان قاسيًا معها كصخرةٍ صماء، فتحجرت دماؤه، ومنحت هذه البقعة شكلها التي هي عليه منذ آلاف السنين.

بعدها ماتت كل الورود، وتفرق شمل القبيلة، لتنتهي حكايتهم، ويختفي أثرهم، لا أحد يعلم شيئًا عن النهاية، ويكفي أنهم لم يعودوا موجودين..

العجيب أن هذه البقعة لم تعد تعكس ظل من يمر بها أبدًا، يمكنك تجريب هذا.

تذكرت أنني حبست أنفاسي لفترة طويلة من الزمن، خرجت زفرتي قوية حارة، قلت لها: هل هناك من يعرف هذه القصة غيركِ؟

أجابت في ثقة العارفين: لم يعد هناك غيري، وأنتَ، هل تعرف ماذا يعني هذا؟

قلت: وهل يعني شيئًا؟

قالت وقد تحولت كلماتها إلى الجدية المطلقة: يعني أنني سأموت قريبًا، كان لا بد وأن يحمل واحدٌ غيري القصة كي أرتاح، ولا بد أن يكون هو السائل.

قلت مذعورًا: هل تقصدين أنني سأحيا حتى تنتقل القصة مني لآخرٍ يسأل.

أومأت برأسها بما يعني (نعم).

تركتها ورائي وجسدي ينتفض، فقد صرت أحمل موتي في رأسي، يبقى فقط أن يسألني أحدهم.

نادت من خلفي: أنت يا صغير.

التفتُّ لها فقالت: لم تسألني عن معنى الاسم، (نفرو).

- وماذا يعني؟

قالت: يعني (جميلة).

من وقتها وأنا أخشي أسئلة الآخرين، يمكنني تجنب السفر إلى (سيناء) طيلة عمري، ولن يمكنني أبدًا منع نفسي عن لقاء من زارها، فقررت أن أذيعها على أكبر قدرٍ من البشر، أن أكتبها للجميع، لربما تاه الموت عن طريقي.

★★★

مازلت أفكر في تلك البقعة الطيبة من الأرض، إيماني شديدٌ بها وإن أنكرها غيري، مازلت أنا البطل الحقيقي للقصة، (خالد) الذي يسيِّر الأحداث.

فليكتب ما يحلو له، وليخرج على معتقداتي، ذلك لن يغير من إرادتي، وإصراري، سأحصل على نهاية تليق بمثلي، نهاية تستحق القسوة التي عملت بها، وعاملني بها الوجود.

أتمنى أن أنالها، رغم أن واحدًا غيري يكتبها.

من وقتٍ لآخرٍ أشعر بذاتي، أنني حقيقي ولست مجرد شخصية خيالية في كتاب، لن تنتهي حكايتي بانتحار خالقي، وهذا لا يعني أنني غير حقيقي، الأمر أننا لم نكن واحدًا أبدًا.

لكن... هل يكفي الاعتقاد؟

سأحاول تغيير السياق كما يفعل هو، سأطفيء الأنوار، نعم. سأخرج على النص المحكي وألعب لعبة الظلال من دون غاية، أحتاج إلى هدنةٍ من كل هذا العناء.

يمكنني تشكيل صور بيدي على الجدران، أجيد تصوير الكلب، أحب ذلك المخلوق بدون سعاره، ها هو يتشكل، لم يعلمني أبي كيف أفعلها، ولا أحد آخر، أنا من علمتها نفسي، هل ترونه؟ إنه...

اللعنة...

إنه لا يتركني على حريتي، يفرض عليَّ أبًا غير حقيقي، أبًا لا يشبه الذي تمنيته، الخيالات ليس لها آباء.

أعرف أشياء كثيرةً عنه وعن والده، لن يحب أن أذكرها، لكني سأذكرها رغمًا عنه وليمحُ إن استطاع.

سألَ والده يوم وفاة جده: إلى أين يذهب الراحلون يا أبي؟

أشار أبوه فقط نحو السماء، عندما تأملها وجدَ المسافة كبيرة جدًا، قال في سره: لا بد أن أنظارهم قوية جدًا.

مات أبوه وهو في عمرِ المراهقة، ارتكب كل الحماقات التي يمكن أن تغضب أباه لو بقى على قيد الحياة، تعلل بنظرِ والده الضعيف ومنظاره السميك، فالمسافة كبيرة جدًا.

ظل بداخله خوف أنه إذا صعدَ إلى السماء لن يعرفه، ستتغير الملامح، وتتبدل القسمات في غياب متابعة الأب له، حتى وإن عرفه بقلبه كطبيعة الآباء فلن تدركه العين.

يبدو أن ذلك هو السبب في أن والده لم يزره مرةً في الحلم حتى لحظتنا.

(ها هو الآن ينهي استغراقي في الحكي، والخروج، لن يمنحني الحرية أكثر من هذا، إنها ديكتاتورية الصانع.

الآن تتلاشى رسمة الكلب من الجدار، ويعود الظل الأول).

- لم تنسَ.

- هو لا يريد لي النسيان.

- وهذا جيد لبقائي.

- لكني حقيقةً لم أعد أعرفك، كذبتَ في المرة الأولى، وأُجبرت على التصديق.

لست ظلًا للقتيل أبدًا.

- وهل أخبرتك أنني ظله؟ ما أهمية كوني له من عدمه؟

- اعتقدت أن الظلال لا تكذب، صدَّقت هذا حتى بدأت حكايتي بيقينٍ كاذب.

- ليس كل ما نعتقده هو الصواب.

على الأقل حققت لك أمنيةً ستعرف قيمتها فيما بعد، ألا أستحق الوجود؟

- من يحدد وجودك من عدمه ليس أنا.

يضحك ساخرًا:

- أنت تكلمني الآن، ومجرد إنكارك لوجودي يجعل منك مجنونًا، أو... غير موجود.

- أشعر أنني موجود... أنا حي.

والآن دعكَ من جنوني، ماذا تريد؟

أو لنقلها صراحةً، لماذا أرسلك؟

- لأمنحكَ النجاة، أن تتقبل الحقيقة فيبدو الأمر سهلًا، ونصل للنهاية.

- تقصد الاعتراف بأني قاتل، العجيب أن يرسلك أنت، وأنت الذي أطلعني على الحقيقة، كنت للقتيل أو لغيره لا يهم، المهم أنني رأيت بعيني.

سأستخدم جملته التي أملاها عليّ من قبل: (لا شيء يجري كما يقدره المخلوق).. وهو مخلوق مثلي.

- أنت ترد رحمته بالعنف.

- أي رحمةٍ تلك؟ الرحمة في الحرية.

- منحك قدرًا منها، بل وتركك تحكي عنه نفسه.

- حرية على هواه، أن تبدأ دون امتلاك النهاية ليست حرية، منحني القدرة ولم يمنحني الوقت.

وأنا لا أملك الآن سوى ذلك التردد عنده بين الحقيقة الباردة، ومحاولات خلق نصٍ زائف، سأستغل تردده وأنطق بالحقيقة.

الحقيقة أنني وددت لو فعلتها، نعم أردت قتله، كانت معي، صدقت أنها لي حتي أحببت الدنيا معها، في فترة تدريب ما قبل التخرج بدت أقرب لي من لحمي، امتلكتها هي فقط من كل الوجود ورضيت، منحتها الحرية المطلقة في تشكيلي، إعادة تكويني، واقتحام حياتي.

انتزَعَها من جسدي فصرت بلا روح، وصار الموت أقرب لي من الحياة.

تابعتُ نظراته ترمقها بإعجاب، بدا عليه الافتتان، ربما لم أمتلك مثل نظراته، لكن إعجابي بها كان أكبر وأعمق من مجرد نظرات، ليست مشكلتي أنها لم تدرك الأمر، أنها استجابت لخوفها، تركتها تقترب إلى حد السكن بداخلي، كيف لم تدرك؟

رأيتها تنسحب من جسدي تاركةً الوجع المطلق، وكراهية العالم.

وجاء ذلك اليوم المظلم، درَّبتُ نفسي لليلةٍ بأكملها أمام مرآتها على

النطق، كنت على وشك الاعتراف والبوح بكل ما يعتمل بصدري، اختزَلت كل مشاعري في كلمةٍ واحدةٍ، سقطَت في حلقي وقتَ فتحت باب غرفة الأطباء، وجدتهم بانتظاري للاحتفال بقتلي.

عندما رأيت كعكة الاحتفال بدأت الحكاية كلها، أخبرَتْهم أنها لن تبدأ الفرحَ حتى يأتي أخوها، مذ رأيتها اعتقدت أن السر في الشبه بيننا أمرٌ آخر غير الأخوة، لماذا لم تنتظر؟

هل اعتقدَت أنني سأفسد الحفل أمام الجميع وأنتزعها منه؟!

مجنونة هي إن اعتقدت ذلك، لم تفهم تكويني رغم القرب.

ناولتني السكين وقالت: أنت من سيقسِّم الكعكة.

أرادت أن ترى يدي المرتعشة، ولم أمنحها ما أرادت، قسمتها ووزعت لحمها على الجميع، كل ما تبقى لي هو السكين، احتفظت به حتى أنهي العمل على الوجه الأمثل، لكن النار طالته قبلي، تمنيت لو فعلتها بنفسي، وجئت أنت لتريني الحقيقة، لولا أن عيني رأتها لما صدقت كاذبًا مثلك.

اعتقدوا أنها دموع الفرح، قصدت أن تبدو هكذا، فارقتُ الحياة وسط الحياة، وعدت لأغلق باب حجرتي على روحي.

كان الألم أقوى من محاولات أبي وأمي المتكررة، لم يتوقف أبي عند حد الإلحاح، لكنه مات، تبعته أمي حزنًا عليه وعليَّ.

فقدت كل شيء، ولم تفقد هي أي شيء، كان لا بد أن أستخدم السكين الذي طعنتني به.

مرت سنوات إلى أن قررت رد الدين، أمضيتها في أسئلة سخيفة، هل يستحق؟ هل تستحق؟

عدتُ إلى عملي في مكانٍ بعيد، لربما انشغلت بالحياة عن فكري، ساقتني الظروف إلى تغيير مكاني، تأكدت وقتها أن القدر يسوقه إلى مذبحي، زاملني، جعلته على نفس المسافة التي كانت معها، بدا لي سعيدًا، بدون آلام، وليس في ذلك عدل.

كان قد مرَّ على زواجه منها أربع سنوات، عددتهم باليوم والليلة، أربع سنوات لم تغادرني الرغبة في طعنه وتهشيم رأسه فوق حجرٍ أصم، وتركها لتحترق بموته.

أحيانًا نستبدل كل الحياة بفكرةٍ واحدة، ولست أول من فعلها.

حاولت التراجع، وفي كل مرة أرجع فيها أجده يظهر من جديد.

لم يخبرني اسم ولده، ولم أسأل، فقط رسمته في صورتي، وحافظت على الرسمة.

أخفيت ظاهر مرض بدواء لا يشفي، سألني الجميع عن سر تغيُّري، وكذبت في كل مرةٍ، وزَّعت ضعفي الظاهر، وضيق نفسي بين النوم، والإرهاق، وفقدان الشهية.

اعتزلت العملَ كي لا أنكشف للمتطفلين، ويذيع خبر المرض، إنها ضريبة الحياة وسط الأطباء.

زرت منزله، جال بخاطري أن أشعله، وأستدفئ بالجسدين، لولا ضحكات الطفل البريئة.

تابعت سيره أكثر من ظله، وسعدت حين علمت أنه لا ينتبه للظلال كالجميع فلم يدرك متابعتي له.

وجاء اليوم الذي قررت فيه استخدام السكين، انتظرته أمام غرفة الإفاقة، صدمتني حين رأيتها إلى جواره بالحجرة، كل ما شغلني هل ستخرج معه؟ لم يخرج، ولم تخرج هي أيضًا، لم يخرجا أبدًا، رأيت النيران تشتعل بالحجرة وتأكل الجميع، احترق أمامي حتى ذابت ملامحه، واحترقَت حتى لم أعد أعرفها، لو أن أمر فتح الباب كان سيفلح في إنقاذ بعض حياته لفعلتها، وهشمت رأسه فوق البلاط، كنت سأغمد سكيني في صدره وسبقتني النار، غبت عن الحياة متأكدًا أن غيابي لن يؤثر في زملاء العمل، ولا الجيران، يعتقدون أنني مجنون، وليس هناك من يهتم لأمر المجانين.

كدت أحصل على سلامٍ كاملٍ حتى جاء وجعلني بطلًا من دون إرادتي، كان باستطاعته إنهاء الأمر ببساطة، احترقَ ورحل، تلك الدموية التي تسكنه، ورغبته الملحة في امتلاك قصة بغيضة أفسدتا

كل شيء.

امتلكَ بديلًا مثاليًا، أن يحكي أثر ما جرى وليس ما جرى، ذلك العالم الجديد الذي خلّفه الموت، اختار الأسوأ من الحكاية، والآن يريد تحميلي آثام الخلق جميعها، يريد تغيير الحقيقة لمجرد خلق نهاية مثيرة، نهاية للآخرين وليست لي.

هذه هي الحقيقة التي أرادني أن أنطق غيرها، والتي أرسلكَ لتحملني على الاعتراف بغيرها.

(الظل يتأمل هذياني، أو لنقل اعترافاتي كملك الحساب، مع أنه لا يحمل دفترًا ولا قلمًا).

- سيحزن بالتأكيد لكلماتك، وسوء ظنونك.

(يستعيد الظل منطقه الذي خُلق عليه).

- لا أحد يحكم على خالقه يا هذا، أنا لا أملك حرية التعاطف مع الآخرين، وليس عندي مبررًا لكل ما كتبته، إلا أنني سألتزم ولن أخرج على الدور المحدد لي.

- هل أنتَ راضٍ الآن؟

- المهم أن يرضى هو.

(قالها وانسحب من أمامي، لم يحب ما قلته بالتأكيد، ولن يرضى هو أيضًا، والآن لم يعد لي سوى الانتظار، الصمت، والبكاء).

★★★

لا بد من لقاء أخير لنحسم فيه المسألة، إنه يتجاهل إرادتي أنا الكاتب، وليس هذا الذي خلقته لأجله، أشعر أن النص مكتوب من قبل أن أكتبه، ولم أعد أشعر بملكيتي له، لأول مرة تنتابني هذه الحالة العجيبة، حالة التشظي والانفلات، حالة الخجل والخوف من المواجهة، يبدو أنني صدقته أكثر مما ينبغي فصدَّق كذبتي، صدَّق أنه حر.

- ما زلت تريد نهايتك يا (خالد)؟

- وأكثر من ذي قبل.

- ولكنك قاتل.

- أنا لا أخشى لقب القاتل أبدًا، من منا لم يفعلها؟ القتل هو الأصل وليس أى شيء آخر، أتفق معك في هذا، سأسألك سؤالًا ربما يوضح وجهة نظري..

هل تقسم أنك لم تقتل أبدا؟

أعلم أنه لا يعرف عني أكثر من نفسي، لكن سؤاله يحمل رائحة المعرفة المسبقة، بل والمؤكدة، إن هذا جنون، أن تختلط الحقيقة والخيال بمثل هذه الدرجة، أن تخلق من يحاسبك لمجرد أن به شيئًا من روحك، على الأقل أستقطع من عمري عامًا أو عامين إذا ما سُئلت عن سني، كما يفعل أكثركم، وأدرك تمامًا أنها خدعة لن تنطلي على الموت، ولا على الحياة.

أنا مخلوقٌ محبٌ للحياة وهذا يفصلنا بالتأكيد، ربما يحاول الحصول على أي جملة يثبت بها صحة منطقه، ولن أمنحه إياها أبدًا.

- هل تتهمني بالقتل لمجرد.. لمجرد الرد على اتهامي؟ تريد إجابةً؟ لا لم أقتل أحدًا من قبل.
- رغم أني لم أتهمك إلا أني سأعيد عليك سؤالي، وبطريقةٍ أبسط. هل تُقسم أن شيئاُ منك لم يقتل أحدًا؟

قشرة موز ألقيتها في الشارع بعيدًا عن بيتك كسرت رأس أحدهم، كلمة خرجت منك دون قصد تذكرها أحدهم بعد سنوات وضاقت بها روحه فقتلته، واحدة انتظرتك لتحيا ولم تلتفت، قاسمت مرضك مع أحدهم فلم يتحمله الجسد ومات بعيدًا.

ليس كل القتل ذبح يا صديقي.

- أنت مجنون.

- ليس إلى الحد الذي تظنه، المجنون هو من لا يدرك أثرَ أفعاله، تخيل لو أدركت أنك قاتل، أكيدٌ ستتوخى الحذر ولن تقتل بعدها.

حُسن النية لا يجفف الدماء أبدًا.

أعلم أن لي أخطائي، لكنها لا تصل إلى الدرجة التي يتحدث عنها، بالفعل ألقينا الكثير من قشر الموز، لم أكن وحدي يومًا، كنا نستمتع صغارًا برؤية رؤوس الآخرين تضرب الأرض، كلهم نهضوا، الوحيد الذي خالف العادةَ هو عم (إبراهيم).. كان قد جاوز السبعين، فكُسِرت قدمه، لكنه مات بعدها بعام، لا شيء يقتل بمثل ذلك البطء، تخيلوا لو أن أحدهم يتآكل في فرشته لمدة عام، إنه شيء مقزز، لا... كسر القدم لا يعني قتلًا، بكى كطفلٍ صغير فقد أمه بالسوق ساعتها، صحيح ضحكْت وهم يحملونه، كان يشبه أبي يوم وفاته، وأُقر أنني لم أرفع الأذى عن طريقه، لكنني لم ألقِ تلك القشرة بالذات، لم أفعلها صدقوني، لا... ليس هذا قتل.

تقبيلي لابن العاملة أيضًا لم يكن قتل، لم أكن مريضًا، بالفعلٍ كنت آخر من خالط أنفاسه، لكن... ما هذا؟...

لا يمكن تحديد مصدر العدوى فالجميع قبَّلوه، بالفعل لم أقتله، أنا بخير، ولا يعاني صدري مطلقًا، لم أقتله.

ولا أعتقد أن الأمر يتعلق بذلك الولد الصغير، كان سيموت على كل حال، طفلٌ مشرَّد في الشوارع، إنها نهاية طبيعية، سرق الغسيل أكثر من مرةٍ ومات شبه عارٍ، قتلوه بالفعل ولم أكن موجودًا، بل حنوت عليه، في كل مرة كنت أمنحه المال، لم أمل... إلا مرة واحدة، الملل ليس أداة قتل،

في أول الأمر لقيته قريبًا من البيت، كانوا يطاردونه بشراسةٍ، رغم جهلي بالسبب لكني أوقفته رغمًا عنه، قالوا إنه خطف سلسلة من رقبة امرأة بالغةٍ وهرب، رغم أنني مَن استوقفه فإنه احتمى بي وصنع مني جدارًا بينه وبين مطارديه، أبعدْتُه عن شراستهم، وآويته في ظهري، قلت له صارخًا: هل تعرف ما كان سيحدث لو أن السلسلة أكثر سمكًا؟ كنت ستقطع رقبتها أيها الحيوان.

أجابني باكيًا وخائفًا: أردت أن أقطع رقبتها... ألم تفكر ماذا تعني سلسلة بالنسبة لطفل مشرد مثلي؟ لا شيء، أقل من الخمسة جنيهات، فمثلي لن يجرؤ على بيعها، ولن يقبلها مني صائغ، سيبادلني أحدهم السلسلة بتلك الجنيهات التي ذكرتها، أما أنا فقد أردت قطع رقبتها.

قلت مهتاجًا لفظاظته المبكرة: كيف تحمل كل هذا الغل في قلبك؟!

أجابني: لقد وضَعَت السم لقططي، قتَلت منهم الكثير، رغم أنها تغلق عليها بابها، وهم بلا مأوى بين الثلج والنار، واريتهم في التراب بيدي هاتين، وفي الحلم طلبوا مني رقبتها، ليتها كانت سميكة.

بدا الماء في عينيه صادقًا، كفيته شرهم ثم أطلقته من جديد.

لم أخذله أبدًا، حتى عرفَ بيتي، بعدها صار يطرق بابي، وللأمانة زاد عدد طرقاته كثيرًا في الأيام القليلة قبل موته، كانت مرةً واحدة تلك التي تجاهلته فيها، ولم يكررها، لم أعرف أنه يأخذ النقود ويشري لبنًا لقططه، جاءت القطط من بعدي فسرق الغسيل، قتلوه في المرة الثالثة، هل تعرفون معني أن تهجر القطط حيًا كاملًا؟ حي بدون قطط؟ هل يعني هذا قتل؟ لا يمكن...

هذا اللعين يحاول توجيهي، يجعلني أستغرق في كلماته لدرجة الهذيان.

- اسمع يا (خالد) الأمر لا يتعلق بي أنا.

- أعرف أن الأمر يتعلق بي أنا، وأنت جزء مني.

ساخرًا:

- ليس لي أجزاء، أنا واحدٌ فقط، ولو فرضناها فأنت الذي هو جزء من خيالي، جزء بسيط جدًا.

- حتى وإن كنت كذلك، فهذا الجزء البسيط أوسع من دنياك بكثير، ولكن ليست هذه الحقيقة، يمكنك مراجعة كل ما كتبت وستكتشف الأمر ببساطة، ستجد أنها ليست المرة الأولى، ستعرف أنك ممتلئٌ بي إلى حد استدعائي في أغلب ما تكتب.

أنت تُؤمن بالخيال أكثر من الواقع، تراه أوسع وأرحب من الجدران الخانقة، علب الكبريت كما تُسميها أنت.

وأنا الخيال . هذا إن كنتَ لم تزل مؤمنًا بوجودي .

- ماذا تقصد من وراء منطقك السخيف؟

هل تتعمد تشويه صورتي؟ وما الضير في هذا؟ كلنا نتاج واقع قميء، ولست سوى مفردة من مفرداته الهامشية، لكني هنا الملك وسأمنعك من الاستمرار في هذيانك، قد أمحو بعض خطاياك عند النهاية، لكني لن أكتب غير الحقيقة التي تعلمها، وإن كنت تنكرها.

- أنا وصلت حدَّ الشبع الخاص، حاول أنت مواجهة نفسك، نفسك التي ترى في القتل أيقونة الوجود، أنت من بدأت كل شيء، يمكنك أن تعدِّل في نصك، كنت سأعترف بالقتل لو فعلتها، فالقتل لم ولن يتوقف، هل أسوق إليك معتقدك عن القتل؟

"كل شيء قام على القتل، بدءًا من الضحية البكر، وحتي آخرهم، لن يتوقف ولو أراد كل البشر ذلك.

هم يعلمون أن الدماء لن تجف، والأرض تقصد جعْلها ظاهرة، لا تشربها، تشير بإصبعها نحوه وتقول: هذا هو الدليل فاتبعوه أيها الخلق.

كلنا عوالم نحيا بعضنا فوق بعض، أنا طبيب وأعلم أن هناك عالم بأكمله يحيا على جسدي، عالم يقتتل بلا هوادة، يأكل بعضه بعضًا ليتحقق التوازن الذي يسمح باستمرار الحياة، ليس هناك ما يسمى بالتطابق، إننا مختلفون، ذلك الاختلاف هو أساس التوازن. القتل هو الشيء الأهم بين كل وسائل تجاوز الاختلافات، والأمر أكثر تعقيدًا مما يظهر عليه".

هذا إيمانك، لذا تُصر على إظهاري بصفة القاتل، أنت تصنع شيئًا جيدًا، آمن به وبي لأنهي ما بدأت.

- أنت محتال... نعم محتـــال، لا أحتاج مبـــررات لأنهي الأمـــر، وأنت تعرف ذلك، أكونُ منكَ أو تكون مني لن يتغير مجرى التاريخ لهذا، تلك هوامش لن تغير من الواقع، المهم أنني أمتلك الرغبة في الوصول، ورغم بعض الاختلاف بيننا لم أكرهك، لن أكرهك حتى تموت أو... أقتلك.

- صدقني ليس لك خيار في أن تحبني أو أن تكرهني، أنا على ما أوجدته أنت بكامل حريتك، لم نختلف سوى في طريق النهاية، أنا أريد اختيارها بإرادتي، وأنت تريد لي العقاب على ما لم أفعل، في كلتا الحالتين النهاية أني أموت، فدعها لي أفعلها بنفسي، أعلم أن الأمر صعب التصديق، لكنها الحقيقة، أنت الذي لا تستطيع الخروج على النص، ذلك سيكلفك قصةً أخرى، ألمًا آخر، ومعاناة

ربما لن تطيقها، أعرف أنك تحب ما فعلت للآن، حتى وإن كان شاذًا، تحتاجني أكثر من أي آخر للنهاية، نهاية ما أعجبك.

فتنة اكتمال النص التي تجبرك على الاستمرار، لن تترك لك أي جرأة لتهدم ما بنيت، خاصة إذا ما تعلق الأمر بخلاف بسيط حول مصيري، لن تغامر وتبدأ من جديد، إنها فتنة الخلق، التكلفة غالية جدًا يا صاحبي.

- تمر لحظات أشعر فيها بأني أعرفك من قبل تكوين قصتي، أعرفكَ جيدًا، لغتك تشبه آخر أعرفه، أنا متأكدٌ من هذا.

خلقتك من قبل ونسيت، أليس كذلك؟

- بالطبع، لكنك لم تسألني، أنا نفس الشخص الذي لم تمنحه اسمًا، وتركته يتعفن تحت شجرةٍ عجوز ليموت حيًا، أنا من سلبته كل حواسه وتوقفت قبل أن تمنحه مشهد النهاية الذي تمناه،

لذا رفضت الموت.

- الذي يسقط؟!

- نعم مسرحيتك (الذي يسقط). اعتقدت أنني انتهيت مع آخر

كلماتك، واريت اعتراضي كي لا أفسد عليك متعة الخلق، وإن كان ناقصًا، بدا عليك الرضا، واكتفيت برضاك، أرأيتَ قدرَ طيبتي؟

- لم أُرد أكثر مما كتبت.

- وأنا أردت، طاوعت شهوة الانتهاء وتناسيتني، تفعلها كثيرًا وستتذكر في الوقت المناسب، بعد أن أنهيت دورك وتركتني لمصيرٍ غير منظور فقدت إيماني بك، كذَّبتك وانتصبت واقفًا، وصولك للنهاية يوجب

عليك الحضور، وأنت غادرت قبلها، هذا هو السر في استدعائي، ضميرك الذي راجعكَ.

- والآن أنت حي، هل تعتقد أن هذا سيغير شيئًا من نصٍ اكتملَ برأسي؟

- بل سيُغير من نصٍ ترغب في إتمامه وبشدةً، ستلوي عنق بعض الأحداث، ستغير قليلًا من شخصيتي، وستغير من حكايات تؤمن بجمالها.

أتعرف؟ أكثر ما أعجبني أنك خلقتني في نفس عمرك، وربما حجبت أوصافي عن عمدٍ ليشكلوني في صورتك، أنت مغرور، تريد كل شيء، بطولة الكتابة، وبطولة الخيال.

علمت أنك بدأت تقليل عدد ملاعق السكر في شرابك، هل هذا هو السبب؟

تخشى أن ينسوك بعد الموت؟

لا تخـف، يمكنك الاستمـرار بي، غيِّر اسمـي، واجعلهـم يذكروني

باسمك، ستعيش طويلًا، أما النهاية... فأرجوك أن تتركها لي، أكِّد لهم أنني قاتل واتركني أحدد مصيري، سأقبل كوني قاتلًا لو تنازلت قليلًا.

- تتحدث عن مدي التشابه بيني وبين مخلوقاتي، ليكن، هذا لن

يقتلني من الخجل، أنا لا أهتم بكينونة النهاية قدرَ محاربتك لتأتي على هواك، تريد خلقَ موتٍ تُباهي به غيرك من المخلوقين، موت بريء.

- الفرق الوحيد بيننا أنك تدّعي القوة، بينما أنت تخاف الموت أكثر من الحياة.

- لأنني حقيقي.

- بل لأنك تجهل الحقيقة.

- الحقيقة أنني أُقدِّر حالتك، أعلم أن الأمر مُختلط عليك، ربِما أنت مُحق في أغلب قولك، لكن يتبقى جزء صغير لم تكتبه بعد، فقط انتظر حتى يكتمل، وأعتقد أن الصورة ستتضح، وستعلم أنني لست بالقسوة التي تراها.

- هل ستمنحني بعدها حرية الاختيار؟

- أتمنى أن يكون لديك خيارات ساعتها.

- دائمًا هناك خيارات.

- هل أنت راضٍ الآن؟

- المهم أن ترضى أنت.

- تشتري نهايتك بتملقي... سأخبرك بشيء ربما أذكره للمرة الأولى، وربما لن أذكره مرة أخرى، أنا أُصدق أنك حي.

★★★

(١٣)

شئ من الحقيقة

لم أعد أتبيَّن الحدَ الفاصل بين الحقيقة والخيال، الرؤية مُشوشة، يبدو أنني أعمل بالجزء الأخير من طاقتي الآن، وهذا يعني أنني أسير في الاتجاه الصحيح، طريق الموت.

أسمعُ صوتَ طرقاتٍ على الباب، ليست للبقال الذي احترم عادتي، طرقةٌ واحدة ثم الطعام مقابل النقود أسفل المشاية، لا أُميِّز مدى واقعيته فعقلي قد يسوق أشياءً غير موجودة بالفعل.

توقفت تلك الطرقات الأخرى منذ وقتٍ طويل، وقد كان ذلك جيدًا بالنسبة لي.

إنها تُصر على اقتحام واقعي بعد أن تجردت من الواقع، مَن الذي تذكرني بعد كل هذا الوقت الطويل؟!

كيف وكل من اهتموا لأمري قد نسوني؟ أو بتوصيفٍ دقيق رحلوا عن عالمي.

أشعر أن كل موجودٍ مرفوضٌ عندي، لذا تخلصت من الموجودات قدر استطاعتي، عندما دقَّ الباب أول الأمر كرهته، وبعد التزامه الصمت

لفترةٍ كرهته أكثر، وصلت لحالة عدم الرضا المطلق، الشيء وضده لن يرضياني، وهذا دليل موتٍ آخر.

كلهم فقدتهم، وليس بينهم من أفتقده، إلا...

يا إلهي! هل تكون هي بالفعل؟

لم يعد واحدٌ يحمل بقايا مني غيرها، سأنطفىء تمامًا إذا

تواجهنا فأنا شيطان وهي... ماء.

سأقترب من الباب ببطء من يفكك لغمًا، أريد أن أفتح، وأخشى ألا تكون هي، لن يهمني كينونة الطارق إذا لم تكنه.

لا بد أن تكون، لا بد.

أخاف وضعَ أذني على الباب فتناديني أنفاسٌ غير أنفاسها.

هل أُعدِّل من مظهري، لا... هي لن تنتظر كل هذا الوقت، ستكون قد غادرت قبل إتمام التعديلات التي أرجوها، فالأمر لا يتعلق بالسطح وحده، إنما هو العمق والجوهر.

إنني مجنون بالفعل، ماذا يضير إن كانت هي أو غيرها؟

متُّ على يدها من قبل... لكني أتمني أن ألقاها ولو لمرةٍ واحدةٍ أخيرةٍ.

كفي يرتعد رغم كل محاولات التماسك، يستجيب الباب وكأنه أراد أن ينفتح ولو بدوني، الآن تقف أمام عيني مباشرةً، متأكدٌ أنني لن أتحمّل الضوء فأغلقتهما، الظلام بالداخل شديد وهي تُشبه النهار الصيفي.

الصوت يصر على تأكيد الخيال:

- كيف حالك يا (خالد)؟

أعلمُ أنني أغامرُ بحرق عيني، لكني سأفتحها عن آخرها، لا أقدر على ألا أفعلها، فلتحترق وصورتها كاملة فيها.

لكن ما هذا؟!

إنها تبدو حقيقية، تحمل ملامحًا كاملةً لا تحملها الظلال!

لقد احترقَت أمام عيني.

لاحظَت دهشتي الظاهرة فانتقلت إليها عدواها، أقول بصوت مبحوح: هل أنتِ حقٌيقية؟

عادت خطوة للخلف قائلةً: وهل أبدو غير هذا؟ نعم يا (خالد). ما الذي جرى؟

أُغمض عيني، وكأني أتمنى أن تزول الصورة حين أستعيد البصر، لكن شيئًا لم يتغير.

ما زالت جميلة، كما عرفتها أولَ مرةٍ، شيء وحيدٌ هو كل ما تغيَّر فيها، لم تمتلك من قبل ذلك الجزء البارز في جنبها، رأت سؤالي يولَدُ فوق شفتي فحرَّكته ليظهر ويتشكَّل ملاكًا صغيرًا، لا يجاوز الرابعة من عُمره.

- ابني (خالد).

المرة الأولى التي أراه فيها، وأشعر أنني أعرف كل شيء عنه، ارتباطه بأبيه، مرآته الصغيرة، ألعابه وشقاوته، حكى لي أبوه عنه كثيرًا، تخيلته ورسمته في نفس ملامحي، لكنه أجمل بكثير من أي خيالات، هو لا يمتلك

من كل أحلامي سوى اسمي، وهذا بالضبط الشيء الوحيد الذي لم أتخيله.

لن أُقبِّله رغم شوقي الشديد لضمه، لا أريد له الموت، تكفي ابتسامة من بعيد وهو سيشعر بكل شيء.

- تفضلي بالدخول.

تخيلت هذا اللقاء كثيرًا، مثَّلته في غير وجودها مع الظلال، أعرف كيف ستبدو في جلستها، كيف ستلتفتُ نحوي، أحفظُ كل ما ستقوله بالحرف الواحد، وكأنني أُملي لها الكلمات...

- بحثتُ عنكَ حتى يئست تمامًا.

غيَّرت الأيام شيئًا من ملامحك، طرقت بابك كثيرًا حتى ظننت أنك غادرت، لم تترك لمن حولك أثرًا، لذا لم يجبني واحدٌ منهم عن سؤالي، لم يعد لي من أشكيه همومي، مات زوجي وترك لي (خالد).. مات وعامٌ يكاد ينقضي على موته.

كنت قريبة وساقتني قدماي إلى هنا من دون أمل، وأخيرًا وجدتك، أنت أقرب الناس إليه قبل موته.

حزنٌ يُمطر فوق حبيبتي وصغيرها، اختارتني وحدي للنهاية، سيتهمها البعض بسوء الاختيار، لكن صدقوني هذا أفضل خياراتها، يكفي أنها لم تفقد الأمل بعد وقتٍ ليس بالقليل.

مسحَت على رأس الملاك:

- حُرم (خالد) الأب من دون ذنب، كان رقيقًا، مهذبًا وطيبًا.

- أحببتهِ؟

- المهم أن (خالد) قد أحبَّه، وهذا يكفي ويفيض.

يرفع الطفل عينيه إلى وجه أمه قائلًا:

- كنتُ ألعبُ معه، أما أنتِ فلا تحبين اللعب مثله، وقت بكائكِ أطول من وقت نومكِ، وعيناكِ دائمًا في السماء، سأخبر أبي عندما أراه في الجنة، وسيعاتبكِ لأجل هذا.

ينظر نحوي متابعًا: القمر لم ينزل حتى الآن لألعب معه، يدي قصيرة، والحصى لا يقدر أن يصيده.

ليس هذا ما حفظت من الحوار، أفسدَ الولدُ كل ما رتَبتُ له حين بكى في صدرِ حبيبتي.

تقولُ وهي تحفظهُ بين أضلعها:

- أُريد أن أعرف قاتل زوجي يا (خالد).. أنت كل ما تبقى من ماضيه الآن، ولا أثقُ في غيرك، هل تساعدني؟

الطفلُ يبعث رجاءه عبر عينيه، كل الأمور تختلف، لم أتوقع أنها تحملُ بذرة الانتقام، اعتقدتها أرق من هذا بكثير، اللعنة...

لا شيء يجري كما قدَّرت له، لا شيء يصْدُق للنهاية.

- ظننتكِ احترقتِ وزوجكِ.

تبرق عيناها، تتهماني بالخبل.

- زوجي لم يمت محترقًا، زوجي قتل، طعنه أحدهم وهشم رأسه بقسوةٍ.

كلماتها تنخر في عظامي كالسوس، أكاد أتهدَّم أمامها، لماذا يعود المشهد كما لو كان قد حدثَ بالفعل؟ تتابع:

- أنا لا أعرف سببًا، ربما كان لصًا، أو مجموعة من قطاع الطرق، أنت أعلم به من أي شخص، لم يكن له عداء مع أي إنسان، أحبَكَ حتى لم يكن يذكر غيرك في حواراته، أعلم أنك أحببته، لذا لجأت إليك حين ضاقت بي الدنيا، هل تساعدني لأعرف قاتل زوجي؟

الضباب يلفني، شريط يجري أمام عيني بسرعة رهيبة، أمسك رأسي التي تكاد ترديني، نظرت إليها:

- ستعرفينه، وستحصلين على انتقامكِ أنتِ وولدكِ.

أعرف أنها الآن أُم، طلبها قد لا يعني حبها لزوجها القتيل، بل يعني الانتقام لولدها الذي حُرِم أجمل أشيائه مبكرًا جدًا، مجرد الرغبة في الانتقام ولو حتى لصغيرٍ أحبه قدر الحياة يعني أن غلًا يسكنها.

بدأت ملامحها تفقد لمعةَ اللحظة الأولى، وبراءة البدء، ليس بفعل الهرمونات، ولا العمر.

أشعر أنني فقدتها الآن فقط، رغم سنوات طويلة من الفقد.

تقول بعد أن دارت بعينيها في المكان:

- لماذا المكان مُظلم إلى هذا الحد؟ يبدو أن هواء الشقة لم يتغير منذ زمن طويل، بالكاد أراك، أليس هناك منفذًا للضوء؟

أحاول التملُص من الإجابة: لا تشغلي بالكِ بأمر الظلام، أعتقد أنني كرهت الشمس، وصارت تكرهني.

أُشير للولد: هل أنتِ من اختار اسمه؟!

- أنا أحب اسمَ (خالد).

- انتظري هنا لحظةً أرجوكِ.

أدخلُ حجرتي وأُحضر لها ماضيها، الذي لم أعد أليق به.

لحظات غبت عنها، أعود لأجدها قد فتحت النافذة مطلقةً سراح الشمس في الشقة، ليست مواجهة الشمس هي الأمر الأصعب، بل مواجهتي لها بوجه مكشوف، خالٍ من الظلام، هذه النظرة التي تترجرج في عينيها لحظة اكتشافي من جديد: يا إلهي!

ماذا حلَّ بكَ يا (خالد)؟ إنكَ... إنكَ...

أناولها المرآة وقد شربت من ملامحي حتى ارتوت فتغيَّرت.

- الآن أعيدها إليكِ، لم تعد تحمل صورتي، هي معكِ في أمانٍ.

أُتبعها بلفافةٍ صغيرة كنت قد جهزتها لحين ألقاها، وقد حصل، تناولَت أشيائي بحذرٍ شديد، أسئلة مكبوتة في حلقها.

أرى ما يدور بعقلها من خلال العينين، لا بد أن كلامي عن المرآة قد أوجعها، تريد أن تسألني عن اللفافة، الفضول يكاد يقتلها، كيف لا وهو أقوى الغرائز؟

- لا تفتحيها إلا بعد عودتكِ الثانية.

- عودتي؟!

- لا بد أن تعودي، صار عمري قصيرًا، قصيرًا إلى الحد الذي لا يقبل أفعال المستقبل، ولا حتى القريب.

أشعر بدمٍ يجري في حلقي، أجري من أمامها، أسعلُ عند الحوض، رئتي تنزف دمًا ميتًا.

- ماذا بك يا (خالد)؟

أسترجعُ روحي من الحلقوم بعد وقتٍ طويل، وألمٍ ظننت أنه لن يهدأ حتى أموت.

- خذي ولدكِ وابتعدي، فأنا مريض، مريض جدًا، ومرضي قد يُعديه، هيا ابتعدي.
- ولماذا لا تعالج مرضك؟ تبدو عليك أعراض السل، في حالته المتأخرة.

تلمح كومة المحاقن المستعملة فوق المنضدة، وفي الأركان الباهتة، تقترب وتمسك بإحدى الزجاجات الفارغة، تتفحصها بعيني طبيبة.

- يوم أو يومين على الأكثر وأسافر للعلاج، قالوا أن مرضي غير قابلٍ للعلاج هنا.
- أنت الذي يرفض العلاج، هذا (كورتيزون).. وهذا (مورفين).. لا شيء آخر معهما، أنت تحاول فقط التعايش مع مرضك، تبدو كمن لا يريد الشفاء، تعرف أن شيئًا من هذا لن يجدي، أنت تقتل نفسك بإرادتك.

- الأمر أكثر تعقيدًا مما ترين، والشرح يستلزم وقتًا، أرجوكِ.. روحي تنفد مع كل كلمة أنطقها، اذهبي الآن من أجل ولدكِ، اذهبي وعديني أن تعودي قريبًا.

- (خالد)...

- ولدكِ أهم، هيا عديني ألا تغيبي.

تلتفت إلى ولدها الذي يتابعنا مشدوهًا، تمنحني نظرة شفقة أكرهها، وسأكرهها بعد الموت.

- سأغادر ولن أغيب.

- تذكري، لا تفتحي اللفافة إلا بعد عودتكِ، عديني.

- أعدكَ.

كنت سأنتظرها لولا الموت، أعلم أنها ككل البشر ستفتح اللفافة، وعدها فقط ما سيعطل الأمر يومين أو ثلاثة على الأكثر، وهذا كل ما أحتاجه من الوقت.

تغادر وهي تعرف أشياء كثيرة عن غيابي، مرضي، جنوني، ورغبتي الصادقة في الموت، لكنها لم تعرف الشيء المهم، وستعرف.

أتمنى أن تعود مرةً أخيرةً، أكون قد غادرتُ قبلها.

★★★

أعرف أن العيب مني، كل الخطايا خرجت من هذه الرأس اللعينة، لو أردت لاخترت مسارًا جماليًا خالصًا خالٍ من الموت والدماء.

وأعرف أن للقتل عندي لذةً لا تختلف كثيرًا عن لذة الشبق، لذة تغيير العالم، لذا أحرص على انتزاع اعترافٍ من (خالد).. لا بد أن يكون قاتلًا.

كل مرة ذكرت فيها مصطلح "في الحقيقة" كذبت، كلهم يبدأون كلامهم بها وليس بينهم صادق واحد، كلهم يكذبون، الحقيقة لا تحتاج كلماتٍ لتثبتها، الحقيقة هي الحقيقة فقط من دون إضافات.

كل من سيقرأني لا بد سيعرف قيمة الحياة بالنسبة لي، قيمة الموت، البداية مهما اختلفت، والنهاية الجبرية.

مشيئتي تلك التي خيّلت لي التحكم التام، رغم استتاري خلف أبطال من بعض وهمي.

فلماذا لم تكن مشيئتي؟

حين أتحدث بهذه الطريقة أشعر وكأني إله، أدبر قصة الخلق الجديدة، وهذا ليس حقيقي، الإله لا تفلت الأمور من يده هكذا أبدًا، أنا فقط أشبه مخرجي أفلام الحركة الأمريكية، يسعرون الجحيم لأجل الحصول على بعض مشاهد النجاة السخيفة.

عندما بدأتها لم أرتب لهذا النزاع، أردت حادثة قتلٍ عنيفة، ونهاية لا أقصد بها تغيير المعتقد السائد الذي يطعمونه عقول البسطاء: "ليست هناك جريمة كاملة".. بينما يمارسها الكبار بكل أريحية، بعض

البسطاء يعلمون الخدعة ويخنعون، يبررون انبطاحهم بأن عذاب الآخرة أدهى وأمَر، فماذا بالنسبة لمن كفر بها؟

أعتقد أن جهنم أعدت للبسطاء، لمَ الاستسلام وقد كنتم تعلمون؟

لطالما خلَّد التاريخ القتلة، هم العامل المشترك بين كل العصور، ولا يُذكر إلا الذي فعلها على الملأ، هل تدركون المعنى؟

ببساطة هذا يعني أن القتل النظيف أسهل بكثير، لذا لا يستحق الذِكر، إنه أشبه بالعادة السرية تمارس في الخفاء، وممارستها لا تثبت الفحولة أبدًا، أردت خلق قاتلٍ يعرفه الجميع.

يبدو أنه تنقصني بعض الحرية أثناء الكتابة، سأحتاج نصًا آخر أمارس فيه حريتي الكاملة، وقد لا أستخدم أبطالًا يعاندون مشيئتي، سأحييهم بالقدر الذي يكفي عبوديتهم لي فقط.

إن بطلي محقٌ في كثير مما ذكر، منحته حياةً كاملةً، نفخت فيه من روح خيالي حتى صدَّقت، وصار الخلق متبادلًا بيننا، ليس على مستوى النص، وإنما على مستوى التكوين، بالفعل أشعر بفقدان السيطرة عليه، من جرَّب التمرد أبدًا لن يستكين، ولو بالموت نفسه.

أعلم تمامًا عدم قدرتي على التنازل عن حالات الجدل بيننا، فمن دونها ستفقد حكايتي جزءًا غير يسير من رونقها، والحكاية أهم ما يشغلني، لن أُفسد عملًا كهذا لمجرد نهاية يريدها بطلي.

كل ما جرى لا يعني سوى شيءٍ واحدٍ لا بد من ذكره، لقد أخطأتُ في حق أبطالي كثيرًا، أخطأت في حقه هو حين تركته كمًا مهملًا، اخترت له مصيرًا أبشع من الموت، جردته من كل حواسه وتركته ليتعفن في مكان

منعزل، اختياره الحالي أكثر رحمة مما فعلت قبلها.

تجاهلت بعض معاناة مخلوقاتي، تلك العجوز الطيبة * التي عانَدَت نقل جثمان زوجها إلى قبرٍ جديد، ونقلوه رغمًا عنها، نقلوه بأوامر عليا، لم أمنحها ما تستحق من الحكي، لم أروِ عنها الآتي:

امتلأَتْ باليقين أن زوجها تحول ترابًا، واختلط برماد الأرض التي اجتثوه منها، حتى وإن اهتموا بنقله فسيتركون منه وراءهم الكثير، ربما كل لحمه، لن يستطيعوا استعادة ما أكلته الأرض. ظلت تشعر بدهس أقدام السائرين فوق رفات عزيزها، ما أورثها وخزًا رهيبًا في جسدها لسنوات طويلة، عاشت تخفي الوجع عن كل مَن جاوروها، وفي ليلها الطويل كانت تخرج منها بعض الآهات رغمًا، فتضع جلبابها السميك، وتخرج إلى مرقده الأول، تهش بعض الشباب الذين اعتادوا السهر في بقعة الزوج، تصرخ فيهم وتبكي، لم يفهم أحدهم أبدًا سر بكائها وصراخها، ويبدو أنهم أحبوا ألمها فكرروا فعلتهم كثيرًا.

لم تُرحم حتى أتاها (الزهايمر).. أنساها الألم، وكل عزيز لديها.

تلك العجوز لم أنقل عنها الألم، رغم أنه كان أهم ممتلكاتها.

و(ميلاد) * بطلي الجائع الذي حرمته كل شيءٍ؛ حتى صورة أمه، استعذبت جوعه وحرمانه في وحشية مطلقة، عندما تأكد أن الصورة التي باعها مضطرًا كانت لوجه أمه هرول إلى تاجر اللوحات، سأله عمن اشتراها فلم يقدر على إجابته، أحدهم فعلها وانخرط في الزحام، ساقته قدماه إلى وسط المدينة بعد أن ملَّتا السير، تأملَت كل النوافذ عيناه حتى تاه وسطها، حاول التعلق بأي أملٍ معلق على أجزاء الجدران الظاهرة، شعر أن البنايات تدور حوله وتسلبه اتزانه، دخل أول بناية

ثبتت أمامه، طرق الأبواب وسأل: هل اشترى أحدكم لوحةً منذ أيام؟

البعض ضحك، والآخر نهره بعنف متهمًا إياه بالجنون، بعد أن يسمع ما يؤلمه يطبع إمضاءه على جدار البناية حتى لا يكرر الرجوع والسؤال، ظل على حاله أيامًا وأيام، تذيلت كل البنايات بتوقيعه في وقت قصير، تساءل الجميع عن ذلك العابر، وشاع اسمه (ميلاد) الباحث عن وجه أمه بين الناس، بعد موته نسجت الأساطير والحكايات عن لوحته فتعاظمت قيمتها، قيل أن الذي اشتراها قد باعها لأحد الأثرياء بمبلغ مهول، ولم ينس البائع أن يقدم لمبدعها شيئًا من التكريم، فقد استنسخ من صورته الأصلية واحدةً وضعها على قبر (ميلاد).. كتب تحتها: إلى وجه الخير، علَّك تلقى وجه أمك بعد الحياة.

أما بالنسبة لبطل الحلم العجيب، ذلك الذي أعتبره جزءًا من تكويني، أمطرت السماء أثناء طيرانه، انشغلَ بفراشات الضي عن الوجود، بعد أن حطَّ فوق سطح بيته مجبرًا تحولت الأمطار إلى سيل جارفٍ، كان يدرك أن الأمر غير طبيعي، لكن شيئاَ في حكايته كلها لم يتفق مع الطبيعة، لذا لم يهتم بالأمر، دخل حجرته، استرجع ذكرياته، وغطَّ في نوم عميق، صحا من نومه ليجد السيل قد استحال إلى طوفان: اقتلع كل ما فوق الأرض عدا بيته، تأمل الوجود من نافذته فلم يلمح ولو حتى سفينةً لـ(نوح).. شربت الأرض ماءها وأخلت الكون من كل شيء عداه، خرج من منزله لينظر ماذا جرى، وقتها تأكد من فناء الجميع، كل ما وجد من أثرٍ مجرد ساعات، ساعات رائعة مبذورة في التراب، كأن أحدهم غرسها بتمعنٍ شديد في قلب الطين، لملم كل ما استطاع حمله وعاد بها إلى بيته، كررها مرات ومرات حتى امتلأت حجرته عن آخرها، في اليوم التالي وجدَ أولئك الذين على صورة الأبقار قد تجمهروا أمام البيت، يتهمونه بأنه من سرق الوقت والتاريخ، عاشوا

عمرهم خارج الحياة ثم حمَّلوه خطاياهم، ألقى بها إليهم ليتركوه، لحظتها دقت الساعات وعلا صوتها كأجراس الكنائس، العجيب أنهم أغلقوا آذانهم، والأعجب أنه فعل نفس الشيء، انصرفوا خائفين محملين بما تبقى من وقتهم، ليفقد الكون اتزانه، وتفقد الحياة منطقيتها.

ساعة واحدة هي كل ما بقى له، في النهاية ومن داخل القبر صرخ بملء حنجرته، لم يسمعوه، حتى أخوه تجاهل صراخه فالأموات لا يصرخون، تذكر الساعة، كسَّر زجاجها وأعاد العقارب إلى الوراء، اجترَّ الأحداث سراعًا، والشخوص، أباه، أمه، أخته، أخاه، زوجته، ولده، أمن الدولة، الأبقار، الزنوج، معلمه، حبيبته الأولى، صديقه الشاذ، كلبه، ليبدأ من جديد.

أردت له عكس الشائع، أن يبدأ من الذروة لينتهي بالهدوء.

أهملت أن أذكر سر البداية، إيماني بأن الألم دليل على الحياة، وبحكم عملي كطبيب أدرك معني غياب الألم، في الاستقبال لا تقلقنا صرخات القادمين، سيكون كسرًا، أو قطعًا في اللحم، إنه يشعر بالألم، إنه حي، وتنقلب الدنيا رأسًا على عقب حين يأتينا الصامتون، إنه لا يستطيع الصراخ حتى، لا يمتلك رفاهية الشعور بالألم، عادةً ما يكون الأمر منتهيًا، نزيف داخلي، أو غيبوبة كبدية، في المرة الأولي التي رأيت فيها الدم مختلطًا ببرازي خفت حدَّ الموت، لم يكن الدم هو سر الخوف، وإنما غياب الألم، تحسست مؤخرتي جيدًا، لا شيء مطلقًا، وأنا أعرف معنى غياب الألم وقت المرض، آمنت من قبل بخرافة أن الإنسان يشعر بقرب أجله قبلها بأربعين يومًا، وأدعوها خرافةً لأنني أنزف منذ عام ولم يحن أجلي، هذا هو السر في تجاهلي الإشارة لآلام الآخرين حين يبدو موتهم قريب.

أفسدت إيمان بطلي ببقعته، رويتها بالدم مرتين، ولم أمنحه مجـــرد

الحلم، غريب أن يشعر من هو في مكانتي بالغيرة ممن هو في مكانته، إنها أنانيتي التي أسالت الدماء رغم عدم حاجتي لحكاية من خارج النص.

بالفعل ليس كل من أشعلَ نارًا قادرٌ على إطفائها، والعجيب أن بداية النار تنتهي معي بموت مخلوقاتي، لا أذكر أن أحدهم استمر بعد النهاية، إلا الذي استيقظ من موته ليراودني عن نصي.

أنا مخطيءٌ وقد لا أستحق كتابة النهاية، لذا سأحافظ على ما كتبت في هيئته، سأمنحه مرةً أخيرة ترضيه، وتحجبه عن خيالي، فراقنا الآن محتومٌ وسيغادر عالمي.

لم يكن أقرب لي من حبيبتي، وقد فقدتها، فما الجديد إذًا؟

بالطبع سأستدعيه كلما قرأت كتابي هذا، لكني لن أستعمله، الجدال أمر شاق ولا يمكنني احتماله مرة أخرى.

إنها الأمور حين تخرج من أيدينا وتنتثر عاصيةً على الخضوع حتى لمبتدعها.

الأمر غير منطقي، فالمنطق يستحق أن يُخضع العقول، والواقع أن العقول تحاول دائمًا إخضاعه، إنه نوع ما من الحروب الداخلية التي يخوضها الإنسان بداخله بحثًا عن الهزيمة، علّه يتجنب هزائم الحقيقة.

سأحافظ على كونه قاتلًا، فقد تأكدَّ من جرمه بعد اللقاء الأخير، أشعر بصدمته، وأكاد أصرخ له، سأطلق سراحه، وأمنحه مطلبه، تعرفون لماذا؟

ليس هناك أصعب من رجاء ما قبل النهاية أن نتجاهله، ولم أكن أبدًا بمثل هذه القسوة التي يراني عليها، هو يستحق أشياءً كثيرة، ليس من بينها التجاهل.

صحيح أن موته قد لا يمنعنا اللقاء، لكننا لن نلتقي بعدها.

كلنا ندرك نهاية الوجود، وقد بدأت نهايتي منذ اعتمدت إصلاح عيوب جسدي ببعض الكبسولات الدوائية، تلك الكبسولات التي قد تساعدني على المواجهة بما يُشبهني وأنا حي.

النهاية ستكون مقبولة إذا ما كتبها هو بنفسه، فهو يجيد الحكى ربما أفضل مني، وللحق أنا أحب نهايته.

بعدها أفضِّل أن أخلق غيره، وغيره، ربما وجدت في أحدهم ما كان ينقص حكاياتي، أو ينقصني أنا.

أنا رب أشيائي الصغيرة، رب التفاهة والخيال، رغم هذا سأتخلى وأحتجب.

استطعت التعايش مع كل أنواع الغياب، ولن يكون (خالد) هو نقطة الضعف عندي.

فليذهب إلى الجحيم، ليصنع نهايته بنفسه، ولتستمتعوا بألمه، فأنا... أثق به.

★★★

كالعادة، يتم الاتفاق بين الكبار وما على الذين مثلي سوى الاختفاء، أنا الظل، عشت الحكاية كاملةً سامعًا ومطيعًا، لم أحاول التمرد، أو توجيه المسار بغير ما أمرني، والآن أُنسى ككل التوافه من حولكم.

لم أحصل على ما أستحق لمجرد وجودي في حضرة البطل، تلك البطولة اللعينة التي تسرق جماليات ما دونها، لا بد من لغة وصفات تناسب البطل، يمنحونه اسمًا رنانًا، إن لم يكن جميلًا فهو مميز

ومناسب للأحداث، لماذا ينتصر البطل ولو بالهزيمة؟ لماذا لم يمنحني اسمًا؟

فقط لأن الكاتب يُسقط عليه كل الصفات التي أراد امتلاكها، وإن كانت مقرفة، ومقززة.

أما أنا... فلا شيء.

يمكن استبدالي بمخلوقات أخرى كثيرة، يمكنه أن يستمر مع بطله في لعبة المرايا ويمحوني، يمكنه أن يستخدم الأصوات، الأشخاص، و... أشياء أخرى.

لم أكذب أبدًا حين قلت أني أستطيع مزاحمة (خالد) في قصته، أعرف أشياءً لم يذكرها، بل وأعرف عن الكاتب نفسه ما يخفيه، حالة التشظي التي تربط بين الاثنين، الجرح الغائر في قلبيهما، حكاية العصافير التي لم يكملها واحد منهما.

كانت أجمل الهدايا التي حصل الكاتب عليها قفص عصافير من والده، ظل يرعى ضعفها سنةً كاملة، زاد عددهم في تلك السنة حتى ضاقت الشرفة بالأقفاص، أهدى أجملهن لأول حبيبة، رأى في عينيها ابتسامة أغنته عن كل عصافير الدنيا، ولأنه كان صغيرًا لم يعمل حسابًا للآتي، انتقلت أسرة الحبيبة إلى بلاد بعيدة، بعيدة جدًا، بعد ليلة باكية صحا من نومه ليجد العصفورين على سور شرفته، حمَّلتهما بورقة صغيرة لفتها على رجل الأنثى، وجد فيها: (أريد أن أعترف بأمرٍ صغير. أحبك). لم يفرح لحظتها قدر ما آلمه البعد، ربط في قدم العصفور الذكر ورقته وقد كتب فيها: (وأنا أحبك).. ثم أطلقهما للبراح ثانيةً، في الصباح عاد العصفوران وليس في قدميهما أوراق، ولا حتى ورقته، فعلها ثانيةً،

وتكرر الأمر، كان يحدث عصفوره غاضبًا: (لماذا لم ترسل الرد معك؟). تحولت نبرته إلى العنف، مرت الأيام ولم يتوقف هو عن فعلته، لم يتخيل أبدًا أن المسافات أقوى بكثير من أجنحتها، إلى أن جاء يوم لم يجد فيه أيًا من العصفورين فوق سور شرفته، يبدو أنهما غضبا من تعنيفه لهما أو أن الأجنحة تكسَّرت في الهواء، انتظر كثيرًا ولم يرجعا، استبدلهما بآخرين، الغريب أن واحدًا لم يرجع، ظل على حالته وطارت كل العصافير، من يومها وهو يكره العصافير، ثبت ذلك في عقيدته عندما طارت حبيبته الأخيرة مع إحداهن.

بعدها علمَ أنها تزوجت من نفس الطبيب الذي حذّره مرارًا من العاملة، الخطيئة مشتركة لكنه لن يتعرف إلا بخطأ غيره، سيعرِّيه أمامها إذا ما اجتمعا على سيرته، الغريب أنه قبِلَ دعوة حضور الزفاف، عندما رآهما يتشاركان كعكة الزفاف كاد يفسد كل شيء، في اللحظة الأخيرة قبل الانفجار غادر المكان، واستقلَّ أول سيارة أجرة مرَّت بعينه، حين سأله السائق عن اتجاهه، قال: إلى أبعد مكان عن هنا.

أصيب بعدها بداء الذاكرة، يأتيه طيفها بكل ما مرَّ بينهما، لا يراعي فيه شوقًا ولا ألمًا.

ظل يفكر في قتل غريمه لسنواتٍ، يتخيله يهزأ من علاقته بالعاملة أمام حبيبته، ويضيف مازحًا ما يراه مناسبًا لإسعادها، لم يفارقه حلم أنه يهشم رأسه فوق صخرة صماء، ودَّ لو فعلها من كل قلبه، كثيرًا ما راقب البيت من بعيد، كان يتلذذ بتخيلهما يتضاجعان، ليست لذة الجنس وإنما لذة الألم، الحقيقة أنه استمرأ العذاب فصار صاحبه، كل ما قاله (خالد) عن حلمه هو للكاتب، الذي لم يحرك ساكنًا وقت رآهما

يحترقان في غرفة العمليات، نتيجة انفجار أنبوب الأكسجين، تلك الحادثة الشهيرة التي كان شاهدًا عليها وذاعتها الجرائد، افتتانه بها جعله يتبعها في كل مكان ولو من بعيد، لذا من الطبيعي أن يكون دائمًا قريب، تجمَّد ولم يفتح الباب، نهشَت الخشب ولم يفتح، كأنما أرادها أن تصرخ زيادةً، يتحجج دائمًا بالمفاجأة، أما أنا فلن تنطلي عليّ الكذبة، حين رآها من خلف الزجاج كان نصفها قد احترق، هذا يعني أنها لم تعد تشبه حبيبته، سيعيش بعذاباته إلى النهاية، ولو حاول إفراغ ما بداخله في عدد من الأوراق.

وبالنسبة لـ(خالد) فأنا منه وهو مني، وما أعرفه يكفي لإجابة سؤالكم عن الأرض المقدسة، صغيرًا جدًا سأل أمه: إلى أين نذهب

بعد الموت؟

أجابته: الطيبون يصعدون للسماء، وأما الأشرار فيبقون في التراب.

أحدهم ضربه أثناء اللعب أمام الرفاق، دعا الله أن يميته، بعدها بأيام دهست سيارة طائشة رأسه أمام عينيه، جرى لأمه وهو يصرخ: لم أشكه لله يا أمي. لم تشأ أن تكذِّبه وقالت له: هل كنت تحبه؟

أجابها: كنا نلعب معًا، ولم يكن شريرًا لدرجة أن أكرهه.

قالت: ليس بين الصغار أشرار، سيصعد للسماء.

كان على يقين أنهم دفنوه في التراب، تأكد من ذلك بنفسه حين تبع جنازته، صدّقَ وقتها أن هناك طريقًا للجنة فوق الأرض، وإن لم يصعد الجسد للسماء، نحتال أحيانًا على ألم فراق الأحبة بإضافة صفة القدسية لميتهم، إنهم طيبون، طريقهم للجنة ممهد وآمن، وقد أخلص

(خالد) طلبه في الحصول علي بقعة طاهرة، ربما منحته بعض الراحة عند الموت، يبدو أنه صدَّق وجوده إلى درجة تصديق موته، كان مصرًا على الانتهاء فوقها، لكن النص لم يناسب هذا، ولا إرادة الكاتب، الآن وقد اكتشف أصل الحكاية اعتبَرني كاذبًا وأسقطها من حساباته، أما أنا فأراه كالذي نجا من غرق البحر ليحترق على رمل الشاطئ، فأكمل غرقه في غير الماء، الموت فوق بقعةٍ صخرية لن يختلف عن الموت في الفراش، الموت موتٌ ولا شيء آخر.

أستطيع أن أستمر في حكاياتي إلى النهاية، رغم هذا أهملني، وأهملها.

فقط لأنني لم أثبت وجودي، بل أثبتُّ إرادة خالقي، خالقي الذي رضخ للبطل ولم يراعني بالتفاتةٍ، الذي اعترف بـ(خالد) وحقه في تقرير مصيره، ولم يزعج باله بمجرد تحديد مصيري، كنت سأطاوعه إن أمرني ولو بغير ما أرضى. والآن أدرك حقيقتي، وقيمتي بالنسبة للنص، أنا موجود، ولي إرادة لا تقل عن إرادة الكاتب، لذا سأستخدمها بالشكل الذي يرضيني أنا، وليس بالشكل الذي يُجمِّل القصة.

سأنتهي مع (خالد).. سأتبعه كما تبعت القطط ذلك الصغير الذي قتلوه، حتى ولو كلفني الأمر الفناء المطلق.

ليفعل (خالد) ما يريد وسأكون إلى جواره، أنزف، أسعل، وأستسلم للنهاية، سأتعفن معه لو اختارها، المهم أنني سأمثِّل جزءًا من النهاية، تلك النهاية التي ألهتهم عني.

سأشارك في النهاية.

★★★

(١٤)

تخاريف النهاية

أشعر بكامل حريتي الآن، أشعر أنني حقيقي، وهذا ما أستحق.

أتعرفون؟

لست حزينًا لمعرفة الحقيقة، حاولت جاهدًا التملص من فِعل القتل، وصفة القاتل، أنا لم أحب لون الدماء أبدًا، أو رائحتها، ويبدو أن هذا هو سر تعطُّلي في الجامعة، طاوعت تلك الإرادة الجبرية، صنعت ظلًا أخبرني بما أردت سماعه، أو أراد هو، وصدَّقته، في النهاية... كنت سأحصل على نفس النتيجة، لا أنكر الصدمة الأولى، ولا ألم المعرفة، لكن اكتمال الصورة يستحق الألم، ومن تهيأ للموت لن يضيره بعض العبث.

أن ترى ولا ترى يُفقدك الثقة في عينيك تمامًا، الحقيقة كانت ظاهرةً، ولم أمتلك نظري، تكسير الأثاث، الصراخ بصوتٍ عالٍ، استخدام السكين مرة ثانية، والاعتراف بكوني قاتل، كلها تداعيات لمعرفة الحقيقة.

حادثت نفسي عندها. وماذا بعد؟

الخوف وقيد الخالق أمران لا يمكن تجاهلهما ببساطة، الأول يحتاج لاعترافٍ كامل، والثاني يحتاج إلى معجزة، وفي أي حالٍ أبقى على طريق الموت، أحسست أنه من الأفضل كتابة ما يليق بي، بدون خوف أو قيد، مادمت على الطريق فلأرسمه بطريقتي، بالشكل الذي يصنع مني بطلًا، لروايةٍ تستحق.

يتوجب علينا الحفاظ على مسافة كافية بين العين والصورة، هذه المسافة هي التي تخفي تشوهات التدقيق، حاولت الحفاظ على المسافة بيني وبين العالم، لكن المسافات لم تكن أبدًا قادرة على إخفاء القبح، وتجميل التشوهات.

أشعر أنني الناجي الوحيد من حرب ضروس، إلى أعماق الصحاري القاسية، إحساس من كُتبَ عليه الحياة وسط الموت، والموت وسط الحياة، كالذي استبدلَ صوته بالصدى، وصورته بالظل.

لماذا لا يُنهي الله المسألة ويوقف كل هذا العبث الحاصل؟

لماذا لم يعرفوا أن الأرض انعكاسٌ للسماء؟ لذا تضيق الأرض بملكين اثنين، هذا هو السر.

ما فعلته ليس أسوأ ما يحدث في العالم، ولست أكثر البشر سادية فوق الأرض، أنا مجرد مخلوق من لحم وليست هناك ضمانات لبقائي حيًا، اختلفت صورتي كثيرًا، في الآونة الأخيرة، رغم أنني لم أنظر إلى وجهي منذ فترة طويلة، أنا طبيب وأدرك أثر المرض على الوجوه.

لن أبرر أفعالي بذلك الجنون الساري بين شقوق الأرض، ولا في تلك الفراغات بين النجوم، كما أعرف أنه ليس عدلًا الحكم على ما ليس لنا به علم.

ربما أسأت الظنَّ بالحياة قبل أن أعيشها، واجهتها بالرفض من البداية، وبرغم وجودي لم تلتفت لي الحياة، ولن تلتفت لغيابي تمامًا مثل (أكاكي) بطل قصة (المعطف) لـ(نيكولاي غوغول) الذي سلبوه الغاية من حياته وقت سرقوا معطفه، لكني لن أعود في هيئة الشبح لأنتقم من الجميع كما فعل هو، يكفيني اختيار طبيعة وتوقيت النهاية، وهذا يُغني عن العودة.

اعتقَدت أن الوجود وحده كافٍ لأُرى، ونسيت أن أُعلن عنه، أسلمت كياني لآخرٍ يعبث به، ويصنع منه خيالاته السيئة، يحركني كما يشاء، ويأمرني فأفعل، هل هناك ما يفوق هذا عبثًا؟ إن المشيئة التي يقتلني بها في كل مرةٍ هي مشيئته، هذا يعني أنني أحيا خيالًا معادًا تمت خِلقته ألف مرةٍ، أنا هو الكاتب، والكاتب هو الآخر الذي عبث برأسه، والآخر... إلى نقطة غير مرئيةٍ نربط بها خلاصنا.

سلسلة المشيئة التي أردت قطعها، لربما تغيّر المآل.

مادامت النهاية واحدة فأنا الجدير بصنعها، والتحكم في زمنها.

أعرف سبب حربه الأولى، كان يخشى أن يدرك الآخرون فيموت الخيال، ويفقد قدرته على الخلق، له الحق ولي إرادتي، موتي لن يترك أثرًا بالغًا، سينسى الجميع بعد كتابين أو أكثر قليلًا، وسترضخ الخيالات، وربما يصير كل هذا مجرد تجربة فاشلة لم ينتبه أحد إليها.

موتي لن يُجمِّل القتل أو يوقفه، لكنه على الأقل سينهي أحد مجانين الكون، ويضع حدًا لسيرته.

لم أهتم يومًا بتلك الأسباب الواهية التي يسوقونها أثناء الحروب، لم أهتم بالأعداد، الأجناس، ولا حتى الأعمار، لا ضير أن يموت الفرد صغيرًا قبل المعاناة، فقدَت الصورة تأثيرها على عيني، فالكثرة تورث الاعتياد، والصور حلَّت محل الحقائق حتي غيَّبتها.

لا يمكنني استيعاب مسمى (القتل الرحيم).. ربما يقصدون تخفيف العذاب الذي يسبق الموت، لذا أفضِّل أن أدعوه بـ(القتل السريع).

أتعجب كثيرًا ممن يؤجل استخدام أقوى أسلحته، إنها سادية القوي، نوع من التلذذ بوقت المعركة للمتحكم فيها، عندما فعلَتها (أمريكا) بـ(اليابان) توقفت المقتلة العالمية العظمى، ثلاثة مئة ألف من أجل خلاص الملايين، ذلك هو العدل الحقيقي، كانت تجربة ناجحة، فلماذا لم يكرروها؟ برغم أن العالم يستنزف لحمه في حروب صغيرة يوشك معها أن ينفجر، ويُفني الوجود.

عند انتهاء الحرب سيتوجب علينا قتل كل العائدين منها، فلن يكون بينهم أسوياء بعدها.

سيتغير العالم شئنا أم أبينا، إنها السُنّة الماضية فينا، ما يقلقني ليس طريقة التغيير، ولا اتجاهه، فبوصلة العالم تشير نحو الأقوياء، سرعة التغيير فقط هي ما تقلقني، الوقت يساوي ملايين الأرواح، كل دعاوي التفاهم والتفهُّم لن توقفه.

لم أتردد لحظةً في استخدام أقوى أسلحتي... السكين.

بالفعل تغيَّر العالم من حولي وقت استراح النصل في غمده المناسب.

لماذا لا يفعلها الأقوياء من دون خوف؟

ما قيمة الجندي بالنسبة لتفاعلٍ نووي هائل؟ الضربة التي تغيِّر هي الأهم، وكل ما يسبقها أو يليها مجرد هُراء.

إنه الخوف، الخوف هو الذي يحكم وليست القوة، هذا يكلفنا الكثير من الصغار، والأكثر من الدموع.

وفي الحقيقة لن يحيا الحب بأرضٍ كهذه أبدًا، حبيبتي هي كل ما أردت من دنياكم، وقد أخذَت صورتها من المرآة ورحلَت، تركت لي زجاجًا فارغًا لم يعد يشبهني وقت النظر فيه، لذا أعدتها إليها.

عندما فقدْت صورتها بحثت عنها في الخارج، امتلأت بصورٍ لا تشبهها، لم يشغلني أبدًا أمر إصلاح العبث الحاصل، فالعبث جزء من النظام، وبدونه لن تكتمل الآيات الكبرى.

أعلم أن عجلة الزمن تدهس الثابتين، كنت ثابتًا وراضيًا حتى أجبروني على السير، والآن... أصبحت ما أنا عليه.

لن تدركوا أثرَ ما فعلت الآن، ربما بعد موتي بأيام، أشهر، أو سنوات . هذا إن كان في عمر الكون سنوات إضافية .

ستعرفون أن الأشياء الثانوية قد تكون أعظم أثرًا من تلك التي نرقبها ليل نهار، ستعرفون أن السر لا يكمن في القتل ذاته، بل في الانتقاء، مَن سيتغير العالم بمقتله، ومن لن يلتفت لمقتله.

عندما نقترب من النهاية تصبح الأسئلة عديمة الجدوى، ماذا لو؟ وماذا لو لم؟

لكني أسوق بعض الأسئلة في حياتكم التي تبدو طويلة، ماذا لو أن (آدم) قد أحسن تربية ابنه (قابيل) فتصالح مع أخيه؟

لو أن (فرعون) قتل (موسى)؟ لو أن أحد الجنود قتل (هتلر) قبلَ الصعود إلى القمة؟ لو أن (كيندي) أكمل فترته الرئاسية؟ لو أن أحدنا استطاع قتل الشيطان؟

كلها أسئلة تبدو ساذجة، وقد يعتبرها البعض نقطة ضعف في كتابتي، لكن صدقوني، هذه الأسئلة هي كل ما سيتبقى في أذهانكم بعد النهاية، وستخترعون آلافًا منها، عندها ستدركون معنى عملية الانتقاء، كلها أسئلة لا ينتظر من ورائها إجابات، إنها مجرد صرخات في أعماق الوجود.

أعرف أن الانتحار محرم، فقتل النفس ليس مسؤولية الشخص، بل الآخرين، والقتل هو أن تمنح واحدًا موتًا يسبق ميتته الطبيعية، أن تطفىء الشمعة قبل أن تحترق تمامًا، وهذا لا يمنع أنها ستنطفىء في ذات يوم.

القتل موت سريع ورحيم، وقد كنت رحيمًا بوالدي ووالدتي من الطعن في السن والعجز، وأكثر رحمة بمرضاي من الألم والعذاب، وبطفل العاملة من قسوة العالم، وبحبيبتي وولدها مني أنا.

لقد تغير كل شيء بعد أن فعلتها.

لن يبكي أحد والديَّ عندما تكتمل القصة، فلن يحضراها، سبع عائلات تغيرت عاداتهم اليومية، والمادية، توقفوا عن الحياة بالمستشفى، توقف السعال ورذاذ الدم، وأفلت الكثيرون من العدوى، ربما بعضهم لم يزل يبكي، وأكيدٌ منهم من توقف عن البكاء واستعاد طبيعته.

طفلٌ صغير سيحصل على لعب كثيرة، بعد أن تنسى أمه ستلتحم به، ستحاول تعويضه ولو حتى بأبٍ جديد، قد يحب أمه أكثر من سابقه، وبالتأكيد سيحب كل ما يتعلق بها، الأهم من كل ذلك، تلك الحالة الحذرة التي سيقابل الولد بها العالم، الحالة التي حاولت جاهدًا امتلاكها، وفشلت.

لن يلقى مصير الولد الآخر، في أحد أيام الشتاء الباردة، كنت منتظرًا الحلاق الخاص بي، تأخر كثيرًا عن موعده، ولم يفعلها قبلها أبدًا، فتحت نافذتي على الدنيا في واحدة من المرات النادرة، أردت معرفة سبب التأخير، فاجأتني أصوات تزعق بقسوة، وصوت أقدام تؤلم الأرض، حين دققت النظر وجدت مجموعة من الشباب يطاردون طفلًا من أطفال الشوارع، لم أكن قد نسيته، ولدٌ ضئيل يشبه النحلة في جسمها وسرعتها، والبالغون يحملون غلًا في أعينهم، لم يكن قد وصل إلى الحادية عشرة بأي حالٍ من الأحوال، تساءلت، كيف استطاعوا إظهار كل ذلك الغل تجاهه؟

مهما فعل فالأمر لا يستحق بالتأكيد، عندما يئسوا من اللحاق به، أمسكَ أحدهم حجرًا وقذفه تجاهه بقوةٍ، أصابه الحجر في رأسه، سقط الولد كأحد أصنام الجاهلية عند التطهير، شعرت أنه قد تكسَّر عند السقوط، تيبست ذراعاه كما لو أنهما عودا حطب، رغم الشتاء المطبق رجف جسده رجفة احتراق، لا برد، رجفة ألم اقتلاع الروح.

صحت بهم من نافذتي: اقتلوه... لا تتركوه للألم.

تشبثَت عيونهم المستنكرة بوجهي، كما لو كنت أنا قاتله، بكلمتي غسلوا أيديهم من الدماء، منحوه وقتًا كافيًا للعذاب قبل الموت، ثم

اتهموني بالتوحش والسادية، كانت المرة الأولى التي تمنيت فيها امتلاك كاميرا، أصورهم يركلون جثته ليتأكدوا من ذبول شمعته، وأضع صورتهم أمام أعينهم ليعرفوا كيف يكون التوحش.

قتله الحجر ولم يُعاقَب، فمثله غير محسوبٍ للقصاص له.

قالوا إنه كان يسرق الغسيل من الأدوار الأرضية.

تأمَّلت خرقة القماش التي لا تكاد تستر لحمه الغض، وتلك النوافذ المنفتحة على عظامه اللينة، أحسست ساعتها بالبرد الشديد.

حملوه ككومة قمامة واختفوا به، أكيدٌ أنه لم يُمنح اسمًا فوق قبره، لم يؤلمهم منظر دموعه من قبل، فطبيعي ألا يلتفتوا لمنظر الدم، عاملوه كقط مشرد، وانتظروا منه أن يعاملهم بآدميةٍ، أردت له الموت من قبل كي يستريح، ولم أرده بمثل تلك القسوة أبدًا، لم يتركوا لي مجالًا لأقنعهم بأن سرقة الغسيل لا تستحق القتل، أنه بحثَ عن الدفء وسط برودتهم، ولم أهتم.

اعتقدت كثيرًا في قدرة القطط علي التنبؤ بالموت، هي الوحيدة القادرة على رؤية الملَك، حين تراه تصدر مواءً أشبه بالترانيم الكنسية الحزينة، أُجبرت على متابعتها في الصغر، فالصوت لا يستأذن حين ينفذ من الجدران، في كل مرة تطلق ترنيمتها يتبعها صراخ، لماذا لا ننصت قليلًا للقطط؟ لربما استطعنا الاختباء من ملك الموت.

هل تسمعون المواء؟...

أسمعه جيدًا، ولن أختبىء.

عندما غاب الولد انتشرت الفئران في كل المنازل، وبينها، فقد غضبت القطط لمقتله، رحلَت وتبعته كظله إلى حيث انتهى، تخيلتها تقف على قبره كجوقة المسرح اليوناني وتنشد لحنها الحزين، تمنحه ترنيمة الوداع وتعلن الغياب.

أغلقت نافذتي وسؤالٌ يُلح على ذهني، لماذا لم يأتِ الحلاق؟

★★★

رسالة ما بعد الموت:

"حبيبتي..

هذه رسالتي الأولى، أرسلها إليكِ.

أنا في لحظة استفاقة ما قبل الموت مباشرةً، تلك التي نشعر فيها بأن كل شيء على ما يرام، بينما الخطوة التالية تعني النهاية.

لم يمر أكثر من يومٍ على زيارتكِ، ربما تتأملين ذلك السكين الآن، فقد شعرت بلهفتكِ وقت منحتكِ اللفافة، معرفتي بكِ تؤكد أنكِ ستخلفين وعدكِ، وستفتحينها قبل الموعد المتفق عليه.

اعلمي أنني لست حزينًا لذلك، فقد عرفت أن الجميع يخلفون وعودهم، سيغلبكِ الفضول، سيقودكِ إلى قبري من جديد، ولأن الفضول قاتلٌ فسأخبركِ بكل شيء.

هل تذكرين يوم الاحتفال بخطبتكِ؟ انسحبت وسط بهجة الحضور، طالتني عيناكِ وقد رسمت على وجهي شبه ابتسامة، وفي المرة الأخيرة منحتكِ أخرى، كدت أناديكِ قبل الرحيل: الألم يخفت قبل اندمال الجرح عادةً.

ليتني شفيت.

إنه هدية خطبتك لي، السكين.

أود أن أخبركِ بأن ذوقك رائع جدًا، وأنا أجيد استخدام الهدايا بالطريقة المُثلى.

ذلك اللون فوق السكين هو لون دماء، شمي رائحته وستعرفين لأي شخصٍ تنتمي، إن خانتكِ حاسة الشم، أو الذاكرة، فاتركيه لـ(خالد) الصغير، أكيدٌ أنه لم يزل يحمل رائحة والده في صدره.

القتل هو الشيء الوحيد الذي لا يحتاج رأي الآخرين لإثبات قيمته، حتى وإن أنكره القاتل لفترةٍ كما في حالتي. لكن صدقيني، بعد سنوات ستعرفين، وسيعرف الجميع قيمة ما فعلت.

اعترافي الآن ليس مبعثه حبك وحده، بل لأنني لا أومن بقصص القتل النظيف، مهما طال الزمن سينكشف الأمر، والكشف عن الهوية يمنح القاتل أسطورته الخاصة، وأنا صنعت خاصتي، ربما يخلدها كتابٌ، أو تحيا في حكايات اللاحقين، وما أرجوه أن تخلد في ذاكرتكِ، على الأقل سأظل بخاطركِ، حتى ولو على سبيل الكراهية.

لقد كان مجيئك إليَّ هو أفضل اختياراتك على الإطلاق، وإن لامكِ الآخرون، جئتِ تطلبين الانتقام، واخترتِ الوحيد الذي بإمكانه تلبية طلبكِ، كنتُ في طريقي لتحقيقه، اعتبريه نصرًا ذاتيًا، كنت سأفعله لنفسي، وقد صار لأجلكِ، ليس أصعب من رجاء ما قبل النهاية أن نتجاهله، وأنتِ تستحقين أكثر من مجرد تحقيق أمنية.

نعم أنا الذي أردتِ الانتقام منه، لن أوصد بابي، سأتركه قابلًا للفتح مع أول دقاتك لتحققي انتقامكِ، فلا أحد يزورني غيركِ.

لا تطاوعي قلبك إن بكى لمنظري، إنها خدعة، يظهر الإنسان أجمل ما

يكون لحظة موته، يبدو على طبيعته، ضعيفًا، منكسرًا، بريئًا، وغير مؤذٍ على الإطلاق، وهذه ليست الحقيقة أبدًا.

أرجوكِ أن تحجبي جسدي عن عين صغيركِ، واحفظيه بعيدًا عن دمائي العكرة، حافظي عليه من البرد، والعشق والعالم، لا تتركيه للجنون أبدًا، الأمر يستحق.

اخبريه أن العيب ليس في يده، ولا في الحصي، العيب في القمر وقد تكون السحب.

ربما تغيرت الأمور كثيرًا لو كنت رأيته قبل البداية، ذلك الشبه بيننا كان كفيلًا أن يخفف رغبتي الشاذة في الانتقام، ولم أره.

سأطاوع آلام صدري، فقد امتنعت عن تعاطي (الكورتيزون) والمسكنات منذ فترة، أعلم أن كل شيء مقدَّر، وبحساباتي الطبية لن يطول، ربما الليلة، وربما الآن، إنها ليلة مناسبة جدًا للاستسلام.

قبلاتي إليكِ حبيبتي، ولصغيركِ الذي أحببته من كل قلبي... وقبل أن أراه.

آسف حبيبتي، لقد نسيتُ أنني متُّ منذ رحيلكِ.

هذا كل شيء.

وداعًا"

(خالد)

★★★

رسالة ما قبل الموت:

"خالقي...

أردتَ عالمًا والخير وحده لا يصنع حياةً أبدًا.

أعلم أن يوم الحساب قادمٌ لا ريب، يوم تجمع كل من خلقت في مشهد واحدٍ، تسترجع كل خطاياهم، وأخطائهم التي لم يكن لواحد منهم فيها يد، وأشعر أنه سيكون يومًا قريبًا.

مثلك يشعر بأنه أكبر من المراجعة، حتى استسلامك لم يكن اعترافًا بالخطأ قدر ما هو اختبارٌ لي، ولتمردي.

وقتها سنقف جميعًا بين يديك، أنا، وقتلاي، المرأة العجوز، وذراعها، ميلاد، صاحب الحلم، وباقي مخلوقاتك الأولى، والقادمة . إن قُدِّر لكَ الاستمرار.

أعلم أنك لا تمتلك جنةً أو نارًا، لكن أمر وجودنا من عدمه كان بأمرك.

ستبدأ بي، وسأمثل راضيًا، ستخبرني بكل ما قد فعلت، ولن أنكر فقد انكشفت المسألة ورضيتها، حين تسأل عن مبرراتي سأجيب بكل أدب: خالقي، كلنا منك ومآلنا إليك، نعم قتلتهم وأستطيع تمييزهم من بين الصفوف.

سأشير بإصبعي: هذا واحد.. وهذا الثاني.. والثالث.. والرابع...

سأعدهم نفرًا نفرًا..

ها هم قد عادوا كاملين، لم أسلبهم شيئًا، ولم يضلوا طريقهم إليك بقتلي إياهم، فما المشكلة؟

المشكلة لا تتعلق بالقتل قدر ما تتعلق بالرغبة في الوجود، وأنا لم أختر وجودي، خلقتني بالصفات التي أردتها أنت، منحتني ألم العشق، والرغبة العارمة في الانتقام، وحين نفَّذت إرادتَك تحاسبني؟!

يمكنك أن تعوض قتلاي وتستخدمهم في رواية أخرى، سيفرحون كثيرًا، سيكون ذلك أجمل من كل أحلامهم البسيطة، أن يصيروا أبطالًا لهو أمرٌ عظيم.

أما أنا... فلمَ العقاب؟!

أعرف أنك منصتٌ جيد، متسامحٌ ومتَّقد الذكاء.

أتخيلك وأنت تعدِّل هندامك، تربت على كتفي في رحمةٍ قائلًا: (حسنًا، سأعيد حساباتي في أمر الخلق من جديد).

إلى اللقاء في جحيمٍ لا يشبه دنياكم".

. تمت .

(١٥)

ما بعد النهاية

لا... لم تتم، ولن أكون الذي يعيد ارتكاب جرمه وهو على كرسي الاعتراف، أهملت معاناة مخلوقاتي من قبل، أما الآن فلن أفعلها، لست بهذه السذاجة لأكررها.

قد تكون نهايةً مناسبة لبطلي، لكن لديَّ المزيد، المزيد من المخلوقات الهامشية التي لا يلتفت لها الخالق ولا المخاليق.

سبعة من المرضى المحسوبين عبثًا على قيد الحياة، كدت لا أراهم، أنهتهم فكرة من رأس ملعون، حقنَ لهم الموت في برتقالاته، إنهم يستحقون مكانًا في الذاكرة.

اضطر (خالد) لمتابعتهم فترةً تتجاوز الشهر، كانوا موجودين قبل تسلمه مكانه، رغم طبيعته الجامدة عرف بعضهم.

الأول كان اسمه (رمزي).. رجل على مشارف الأربعين، لم تتخلى عنه وسامة الصحة مع مرضه العضال.

بدا كنجوم السينما المشاهير، رفض دخول أى شخص عليه للزيارة منذ أعلن المرض تمكنه، كان في مرحلة متقدمة جدًا من الفشل الرئوي تفوق أغلب المجاورين.

خاف أن يراه أحد بملامح غير تلك التي اعتادوها، ملامح متآكلـــــة،

غطي عليها الموت، يبدو أنه كان يقدس وجهه الذي منحه قبولًا عند العديد من النساء.

بدأت حكايته عندما قدَّمت له ممرضة جديدة الطعام على صينية من الاستانلس اللامع، صرخَ، وهاج حتى كاد يقتل نفسه، آذاه انعكاس الصورة على المعدن، وانطبقَ ذلك على المرايا وكل عاكس للصورة.

حضر(خالد) المشهد، واضطر للتدخل والتعامل معه بشكل مباشر، أعاد له قناع الأكسجين، وربت على رأسه كي يهدأ.

لم يلمح (رمزي) نظرة الشفقة في عين طبيبه، ابتسم واستراح.

صار يغامر كل يوم بالكلام، حكى له عن علاقاته كلها بصوت مبحوحٍ، كان يحتاج للذكريات، يستعيد معها إحساسه السابق بالحياة، فسمعه (خالد) بغير اهتمام.

في أحد الأيام أشار ل(خالد) فاقترب منه، قال له بأنفاس ميتة: هناك فتاة تقف عند الباب في كل موعد زيارة، أرجوك، أخبرها أن خاتمها قد سقط من يدي.

رآها دائمًا عند الباب تنتظر، ولم يسأل عن السبب.

بلَّغ (خالد) الرسالة، ولم تغادر حتى قبَّلت جثته.

الثاني يدعى (صابر).. عمره جاوز الستين، زاره عدد كبير من البسطاء الذين لا يجيدون تجميل ما تحمله عيونهم.

كان يمتلك مشتلًا، قالوا إن الزرع سيموت إن مات، ولا أعرف العلاقة بين حياته وحياة الزرع، أما (صابر) فقد كان يجيد قراءة العيون ببراعة، يعرف تطور الحالة من عين ممرضته، وطبيبه، مهما حاولا جاهدين التظاهر بغير الحقيقة.

تعجَّب (خالد) حين قال (صابر) للممرضة: أعلم أن الأمور بخير اليوم.

راجعَ (خالد) تقاريره الطبية اليومية ليجد حالته قد تحسنت بالفعل.

كررها هبوطًا وصعودًا، وفي كل مرة يتأكد (خالد) من صحة كلامه.

في المرة الأولى التي سمح فيها له (خالد) بالغوص في عينيه قال: أنت تموت عشقًا يا ولدي، لماذا تكره الحياة إلى هذا الحد؟

لم يحمل عن حالته ما يمكن للمريض أن يقرأه في عينيه، بعدها قرر أن يريحه.

استدعى كل طاقته التمثيلية، حمَّلَ عينيه بأكبر قدر من الموت أمام زواره، يومها كاد (صابر) يموت فزعًا، استمر بعدها يصدِّر الموت للرجل مباشرةً.

مات (صابر).. وكان الوحيد الذي لم يحقنه مطلقًا، فقط مات خوفًا.

الثالث والرابع توأمان شابان، أصيبا بنفس الداء، وفي نفس الوقت.

لم يحدد الأطباء أكان أحدهما هو البادىء أم أن غريبًا قد بدأ؟

اعتادت أمهما زيارتهما يوميًا، تشرف على إطعامهما الفتات بنفسها، كانت تقترب منهما متعمدةً مزج الأنفاس.

اقترب منها (خالد) في مرةٍ وهمسَ لها: بعض الغياب رحمة.

أجابته باكيةً: نعم، رحمة...

أردفت: لم يفترقا إلا خمس دقائق طوال العمر، خمس دقائق هي الفاصل بين نزول الأول والأخير من رحمي.

كان المرض قد أفقدهما القدرة على الكلام تمامًا، أشار أحدهما بإصبعه إشارةً تعني أنه الأول، وأشار الآخر بإشارة فسَّرت ترتيبه.

عند الرحيل صارت مدة الفراق عشر دقائق بالتمام.

الخامس، كان رجلًا في خمسينات العمر، اسمه المكتوب (رحيم).. لم يتكلم أبدًا، العجيب في ذلك الرجل أن ملامحه كانت تتغير كلما مر به (خالد).. حتى إنه في بعض المرات اعتقدَ أنهم قد بدَّلوه، والعجيب أيضًا أن زواره لم يكونوا ثابتين، مع كل زيارة تتغير الوجوه، لم يعرف السر مطلقًا، فقط كان يتأكد أن الاسم لم يتغير في كل مرة.

يومه الأخير وقبل أن ينقلوه إلى مستشفى خاص، أراد (خالد) أن يمنحه نظرةً أخيرة، نظرةَ ما قبل السكون.

صعقه الوجه الذي رآه، كان يشبهه تمامًا، حتى ظن أنه ينظر في مرآة، أو أن عيونه منغلقة علي نفسها.

بدت نظرة صعبة كالموت تمامًا، تيقَّنَ بعدها من نهايته.

السادس والسابع لم يكن لهما قصة، كل ما يمكن قوله أنهما كانا أكثر المرضى خوفًا من الموت.

لم يسمح لهما (خالد) بمدةٍ إضافية للتدرب على عدم الخوف.

★★★

أشعر بأن أحدهم يتابع كلماتي، لكنه غير سعيد بحكايتي، عكس ذلك الذي أحبَّ كلمات (خالد).. هل أصابتني لعنة الظلال؟ هل هي علامات الجنون؟

لديه ما يقوله بالتأكيد، أما أنا فقد أفرغت كل ما بصدري.

★★★

(١٦)

القادم من الأمام

أجلس الآن بين كتب التاريخ المتناثرة حولي، متجاهلًا ذلك الظل الذي يقبع خلفي على الجدار، قد لا تتخيلون شخصي، لكني أنا الطفل الرقيق الذي قتل أبوه قبل أن يمتلىء به، لم يسعف الوقت، أو ربما لأن وعائي كان لم يزل أصغر بكثير منه الآن.

البعض أخبرني أن أشياء هامة فاتتني، البعض الآخر أكَّد أن شيئًا لم يفت.

حين قتل أبي كنت في الرابعة من عمري، الآن أطرق أبواب الثلاثين، أتذكَّر أني بكيت، ولم أنقطع عن البكاء حتى نهرتني أمي قائلةً: (لا تبكِ، وابتسم). لم تكن تحب اللعب، ولم تجده مثل أبي، حين رأتني أبكي خفيةً، حاولت إلهائي عنه، فصاحبتني على القمر الذي لم ينزل يومًا لأجلي، تعجَّب الجميع عندما سمعوني أناديه (حبيبي).. أرادت أن أستبدل حبيبًا بحبيب، لنقل أنها ورطتني في حبه، كي لا أشعر بشراكته لي فيها.

توقفْت عن قذفه بالحصى بعد أن أحببته، أحبته هي أيضًا، ربما لأنه بعيد، لكن الشمس بعيدة أيضًا، وضوءها حياة، فلماذا لم تحبها كالقمر؟

أعتقد أن السر في الليل والوحدة، في آلام الذكريات التي لم تغادرها أبدًا.

صحيح أننا نعشق الأشياء إلى أن نمتلكها، إنها الطبيعة، ولا أذكر أنني امتلكت من قبل قمرًا ولو صغيرًا.

في خلال عامٍ واحد حطَّ موت الحزن على وجهها، شهر في الفراش أتابع قلبها الذي عمل بأقصى طاقته، فاختصر العمر.

بكيت، وكلما بكيت أمامها تنهرني وتعود لقولها الأول: (لا تبكِ، ابتسم حتى لا أموت).

ولأني أردتها حيةً نفذت وصيتها، درَّبت وجهي على الابتسام حتى في الخفاء طيلة شهر الموت، فارقَت وبقيت ابتسامتي على وجهي، ماتت وعيناها مفتوحتان للسماء، انتقلْت بعدها إلى كنف جدتي الأولى، كنت قد نسيت إزالة ابتسامتي، حين رأتها قالت: أنت سعيد لموت أمك؟! يا لك من ولدٍ عاق.

اتهمتني بالعقوق، ولم أفهم معناها.

حدث بعد ذلك أمر عجيب، وكأن ملامحي تجمدت على الوضع مبتسمًا، الحقيقة أن الحزن خاصمني وفارق وجهي بعد موت أمي، تلك التي ماتت غير مكتفية من الحياة، جربت الحزن مرارًا، ولم أقدر على استحضاره فوق ملامحي، لذا طاردتني اتهامات الآخرين، ولم يعرف أحد أن الحزن يصيبني كما يصيبهم.

في عراكي مع أحد أقراني لأجل الفتاة التي أحببتها اتهموني بالبلاهة، حتى إن البنت نفسها تركتني بسبب ابتسامتي الدائمة، والتي كانت قد

أحبتني بسببها أيضًا.

حكيت لجدتي فأكدّت كلامهم: (أنت أبله بابتسامتك الصناعية هذه).

كرهتها، في العاشرة ماتت، وكنت سعيدًا بحق لموتها، وليست مجرد ملامح فوق الوجه، انتقلت بعدها إلى الجدة الأخيرة، لم أحب خبزها أبدًا، ولا رائحة المكان، قالت لي: (أحب ابتسامتك).. ربما لأنها كانت قد فقدت عقلها قبل الموت بقليل.

في ذلك السن ولدت قطة جدتي سبع قطط، ماتت الأم بعد أسبوع واحد من الوضع، قالوا إن واحدةً بقيت في بطنها ولم تنزل إلى الدنيا، رفضت الحياة فقتلت أمها.

حملت الصغار إلى حجرتي، راعيتها إلى أن كبرت، كنت بحاجةٍ لكائنات لا تتهمني حين تراني مبتسمًا.

ساعدني جنون الجدة في البداية، ورحيلها من بعد على الاحتفاظ بأصدقائي لفترة طويلة.

بدأ العمر ينحتني في نفس صورة أبي، رغم غياب كفيه حملت نفس الملامح، كل الصور قالت هذا، فقد كان مبتسمًا في صورِه، الوراثة لا دخل لها بالعواطف، فأنا لم أحب دراسة الطب كما فعل، لذا درست التاريخ، رغم الملل الرهيب من تكرار الحوادث، والأحداث، إلا أنني لم أنتحر.

في الجامعة آثرت الوحدة، ولم أسلَم منهم، اتهموني بالجنون لأنني كنت مبتسمًا طـول الـوقت، حتى إن أحـــدهم نعتني بـ(المهرج) وانتشر

اللقب بين الجميع.

رفضت توضيح الأمر ولو لأساتذتي، كنت على يقين أنهم لن يصدقوا أسطورة الحزن التي مستني، فضَّلت الموت بينهم على البوح لمن سيهزأ بي.

واحدة فقط هي التي عادت من عمق تاريخي لتعيدني للحياة، نفس البنت التي تركتني من قبل بسبب ابتسامتي الدائمة، تأكدت أن الأمر لم يكن خدعة، أو جنونًا، اقتربَت كثيرًا إلى الحد الذي جعلني أعرِّفها على قططي.

في أحد الأيام استوقفتني أمام أحد محال العصافير، أعجبها زوج منها، أخذت تساوم البائع في ثمنها، وقتها كرهت تجار العصافير، هم ليسوا تجار أجساد فقط، بل تجار حريات، يفعلونها بعطف، ولطف شديدين، كفيلين أن يجملا الجرم في أعين الجميع، وكرهت أيضًا تجار القطط.

عدت إلى البيت وأطلقت سراح جميع قططي إلى الشارع، عرفت قدر إجرامي حين لم تعد واحدة منهن، رغم حرصي على إبقاء الباب مفتوحًا مدة شهر كامل.

لماذا بدت سعيدة؟

يبدو أنها كانت مثلي لا تجيد رسم الحزن فوق ملامحها.

قلت لها: أنا حزين.

قالت مندهشة: وهل تحزن؟!

اتهمتني بالسعادة الدائمة، أو بلادة الحس، وكان هذا سبب الفراق.

لم أجد وقتًا لممارسة الذكريات المؤلمة، نعم جميعها كذلك، ذكرى سعيدة مؤلمٌ فقدها، وأخرى حزينة تؤلم بذاتها.

لذا تناسيت كل شيء وانخرطت في دراستي، تخرجت من الجامعة بتقدير ممتاز، تخلصت منها رغم شهرتي التي فاقت شهرة أساتذتي، لكنها شهرة (المهرج).. الشاب الأبله الذي لا يعرف كيف يحزن.

أغلقت بابي في وجه الدنيا، اكتفيت بما تركه والديَّ من مال، أبحث في التاريخ، وأكتب عنه بوجه لا يجيد سوى الابتسام، لربما وجدت شيئًا آخر غير الملل.

انكشفت تلك الفوضى العارمة التي يضج بها الكون منذ نشأته الأولى، فوضى المشاعر، الأحاسيس، الأفعال وعبثية الحكم عليها، الخير هو الشر ذاته مع اختلاف الموقف فقط، فالقتل الحرام يصبح حلالًا إذا ما فعلناه بوجه خاشعٍ، أو مبتسم، العشق كذلك، اكتشفت أن العالم لا يتعلم أبدًا، يكرر مآسيه بنفس الكيفية، لأن البشر ذاكرتهم ضعيفة، وعيونهم أضيق من النظر.

مازلت أنتظر، وأقصى ما أخشاه أن يروني مبتسمًا في موتي، فيتهمونني بالحياة.

★★★

(١٧)
انكشاف

"أقسمت بكل ما هو مظلم أن يرى ولا يرى"..

هذه صيغة اللعنة التي نقشها الساحر على أرضٍ صخريةٍ، حتى لا تنمحي أبدًا.

أعلم أن الأمر صعب التصديق، لكن الدجال الذي آذاه (خالد) دون نيّةٍ مسبقة، حين قرأ كلماته على رأسه بغية شفائه، كان ساحرًا بحق، ساحرًا شديد التمرس، وشديد القسوة، أحد هؤلاء الذين باعوا أرواحهم للشيطان، وقد برَّ بقسمه الذي ألقاه في عين (خالد).

أقسمَ ألا يقتات إلا على فتات الخبز العفن، والماء الآسن، حتى تحل اللعنة، لسنواتٍ انقطع فيها عن الحياة، نقشها ورواها بدمه، ظلت دماؤه سائلة طويلًا، جفَّت فتأكد أن اللعنة قد تم تفعيلها، عادت الصخرة إلى ملاستها الأولى، ومات إلى جوارها غير نادمٍ، انتقم لموته على يد حفنة من الغوغاء، أهانوه وسحلوه، جرَّدوه من المزية الوحيدة التي حازها، لقد كان قتلًا على الملأ، ربما لم يلحظ واحدٌ منهم، لكنه مات يومها، ولم ينسَ مطلقًا ذلك الذي بدأ القتل.

القتل ليس خروج الروح من الجسد، بل موتها داخله.

كان (خالد) ساعتها قد امتلكني، أنا ظله، الذي فارقه ولم يفارقه، وكان قاب قوسين أو أدنى من العشق والتجرد منِّي، استبدلني بظلها، تيقنت أن الأمر لن ينجح مع لعنة كتلك، ومع واحدةٍ حملَ قلبها قدرًا من الشفقة يفوق الحب.

البدايات القدرية وكأنه مخلوق للعنة، مشهد البداية لأمه وأبيه

منحه منظورًا خاطئًا عن الحب، ظل معه إلى أن التقى حبيبته الأولى، تلك الصغيرة التي سأله الأستاذ عن خطابها، ولم يكذب، لو علِمَ أن صدقه سوف يجعله اللقاء الأخير لكذب، لو غالبَ خجله ونظر في عينيها لكذب، ليس استهانةً بالله، فالله أكبر، لكنه تمنى أن يبقى كبيرًا في عينيها بعد الفراق، ذلك لم يكن ليغضب الكبير أبدًا.

تكسَّر بعدها قلبه بعدد الشظايا التي صنعها أبوه بالمرايا، من هنا بدأ يكرهه.

فراقها آلمه جدًا، مشهد الاحتفال الذي أصرَّت أن يحضره قتلَه، منحته السكين كما لو أنها مهَّدت عن قصد ارتكابه لكل جرمٍ اقترفه، مشهد التقبيل بينها وبين حبيبها الجديد أوحى له بأهمية السكين، طارده ذلك، في أحلامه.

صار بفعل اللعنة يرى كل النساء العاشقات في صورتها، وطبيعي أن يرى رجالهن في صورة حبيبها.

حين رأى أباه خارجًا من حجرته عاري البدن متعرقًا، راودته عقدة الطفولة، تساءل كيف يمكن له أن يبول على أمه وحبيبته؟

تغيرت فكرته عن الحب والجنس على يد تلك العجوز، التي لا يمكنني الحكم على مصيرها، كنت صغيرًا وقتها، الأكيد أنها فعلت شيئًا أرادته بشدةٍ قبل النهاية، اعترفت لله بضعفها وفارقت للأبد، ما يهم أنها فعلتها بعيدًا عن اللعنة.

صار أبوه غريمًا له في عشق أمه فقتله بجرعات محسوبة من السم في الشراب، لم يقصد أبدًا قتل أمه لكنها ماتت في وقت قصير حزنًا.

عمله الأول بالوحدة الصحية جاء في توقيت حاسم، فراق قاتل، ولعنة مهلكة، واحتياج مفرط لحبيبته، اختار العاملة من بين كل الموجودات، ليس لأنها جميلة فقط، بل لأنها وحيدة كحبيبته وقت التلاقِ الأول، وأم كأمه تمامًا، تجاوبَت معه منذ الوهلة الأولى، لنقل أنه التقطَ نظراتها الشبقة تجاهه، جربها لمرةٍ وحيدةٍ، حين فعلها شعرَ كأنه بال على نفسه، كرهَ إحساسه الطفولي، صحيح أنه هجرها من بعد، فمتعتها كانت أقل من الأولى، لكنه حملَ منها مرضها الرئوي القاتل، نعم كانت مريضةً ولم يعرف، قتلته كما فعلت حبيبته، وظل للنهاية على ظنه بقتلها وقتل رضيعها.

انتقلَ مع (كرم) إلى مستشفى الصدر ليصبح قريبًا منها وزوجها، أقرب مما تخيَّلَت هي، قرأَت كلام عينيه وجاهدَت في إظهار شغفها بزوجها أمامه، لربما انقشعت غيامات الماضي.

تابعها من وراء زجاج غرفة العناية، اشتعلَ المكان بغير إرادته، ذاب كل من فيه في حادثةٍ هي الأشهر على الإطلاق بين كل المشافي.

ولأن رغبة الانتقام لا تموت بالموت، رآها وزوجها في زوجين آخرين.

نعم لم يكن (كرم) هو خاطف حبيبته، الأمر يتلخص في أن (خالد) رأى حبيبته في وجه أخرى، والأخرى كانت زوجة (كرم).

لحظة التعارف الأول بينه وبينها (هذه زوجتي الحبيبة) لفَّها بذراعه حتى لامسَت قلبه، منحها قبلةً تشبه القبلة القاتلة، قصدَ فقط أن يجعل الحياة مقبولةً في عين صاحبه، ولم يشعر (خالد) سوى بالحقد، والرغبة في الانتقام يبعثان من جديد، جاورَت حبيبها كما فعلت حبيبته، لم تُشبهها وإنما شابَهَت ألمه، ضحكاتهما السرية منحته خيالًا قميئًا، كلما رآها كالأخرى تساءل، هل يعلمان شيئًا عن بولي اللاإرادي؟

أردت إجابته، لكن اللعنة وارتني خلاف ظلال معتمة.

مات مرضاه قبل القتل، لم يحمل تجاههم سوى الرحمة، تجاوز عن نظراتهم الشاكرة للممرضة، فلم يكن قد أحس ناحيتها بأي قدر من الحب، تألموا أمامه وقد عرفَ معنى الألم، قليل من المرض فوق المرض لن يزيد الأمر سوءًا، بل يقرِّب المسافات للجهة الأخرى من الحياة، ويخفف عذاباتٍ كانت ستطول.

تخيَّل صاحبه قد مرَّ به ليسهرا في المقهى، والحقيقة أن (خالد) ذهب وحده بعد أن هاتفَ (كرم) من رقمٍ جديد، وسبقه إلى المقهى، كان يراه إلى جواره في كل لحظة، حتى بدت الدهشة على وجه النادل، فالظل وحده هو الذي كان معه، عندما اقترب (كرم) من الوصول، انتظره بمركن السيارات ونفَّذ انتقامه الوهمي دون أن يعرف اسم ولدَه.

امتلكَ رغبةً حقيقية في اقتناء قطٍ أو يزيد، القطط لديها القدرة على التعايش مع المرض، ولا تمتلك عيونًا مؤلمة.

بعد موت الولد الصغير لم يجد في الحي قطًا واحدًا، وهو لا يحب الفئران.

لم يدر بخلده مطلقًا قتل الحلاق حتى رأى حبيبته، كانت تشبهها لذا عامله كما عامَلَ والده تمامًا، وضعَ له السم في العصير، أما الفتاة فقد تبعته قبل تدخله في الأمر.

لو أن الساحر على قيد الحياة لحاولَ إيقاف اللعنة عند مشهد ما من هذه القصة، لا يمكن لإنسان أن يحمل غلًا بهذا القدر، أحيانًا نبدأ أشياء تنهينا، وقد أنهت اللعنة الجميع.

أنا لم أكذب في أيٍ مما ذكرت، ولم أستطع تغيير نظرة صاحبي لي، فالظلال لا تمتلك ملامحًا تكذب بها.

الآن أشعر بغرغرة الروح في حلق صاحبي، ويتوجَّب عليَّ الالتحام به، أنا لا أخشى الموت، فقط أخشى أن أعيد كلماتي من جديد أمام الله.

. تمت .